الفصل الأول

«الجنود المجهولون في المقاومة الحضارية»
دراسة في المقاومة الشعبية (الجماهيرية) في حقبة الحملة الفرنسية

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

في كل مسيرة نضالية يظهر جنود مجهولون يقومون بأعمال عظيمة ولا يتحدث عنهم التاريخ كثيرًا؛ لأنهم ليسوا من النخب البارزة التي يشار إليها بالبنان، ويعتاد المؤرخون الحديثَ عنها باعتبارها صانعةً للتاريخ.

وفي هذا البحث نسلط الأضواء على نماذج من هذه الحركات، ونشفع هذا العرض التاريخي بتنظير يلقي بعض الضوء على خصائصها، وأهميتها في صد الهجمات، وحفظ كيان الأمة، وصنع الاستجابات اللازمة لمواجهة التحديات.

ويلاحظ القارئ أن جل تركيز هذه الدراسة على عمليات المقاومة الحضارية للحملة الفرنسية على مصر وتداعياتها، وذلك للأسباب الآتية:

أولًا- أن دخول الحملة الفرنسية إلى مصر كان النتيجة المنطقية لدخول الأمة في حقبة الانحدار، وعلامةَ هذا الدخول في الوقت ذاته؛ فدخول الأمة في هذه الحقبة - التي هي محل البحث في هذا المحور- لم يكن ليُنتبه إليه لولا وقوعُ حدثٍ جلل تنهار على وقعه كلُّ صروح الوهم والتجهيل والعبث التي انحبست الأمة داخلها في حِقبة الحملة الفرنسية والعقود التي سبقتها.

فقد تفنن القادة السياسيون والعسكريون[1] - من العثمانيين والمماليك وأعوانهم - في تضييع كل فرص النهوض والبعث الحضاري التي أتيحت للأمة في هذه الحقبة، فانشغلوا بذواتهم عن حسن التدبير لأمتهم، وأهملوا قضايا العلم والتنمية بمعناها الشامل[2]،

(1) ولا يزالون، وإلى الله المشتكى!

(2) لم تعدم أمتنا - في هذه الحقبة - العقول العلمية القادرة على تحقيق النهضة العلمية والطفرة الصناعية، لكن المشكلة أن هذه العقول عانت من الآفة التي تعاني منها العقول العربية حتى اللحظة الراهنة، وهي آفة (الإهمال الحكومي) مع (ضعف المجتمع المدني ومؤسساته الوسيطة)؛ فمثلًا يُعَد الشيخ حسن الجبرتي (والد الشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المشهور) صاحب تجربة علمية نهضوية قريبة الشبه بالتجارب التي مهدت لدخول أوربا في عصر الثورة الصناعية، وكانت هذه التجربة صالحة للبناء عليها باعتبارها نواة لمشروع نهضة علمية واعد، لكن مما يؤسف له أن هذا المشروع لم يجد من النخبة الحاكمة التفاتًا يحافظ على ثمرته ويرعاها. وهذا هو الفرق بين التجربة الغربية والتجربة العربية الإسلامية في قرون الانحدار؛ حيث التفتت النخبة الغربية الحاكمة - مبكرًا - لأهمية الرعاية الحكومية في تحصيل ثمار الأفكار العلمية الواعدة، بينما كانت نخبتنا الحاكمة سادرة في غيها، مشغولة بنفسها، منعزلة عن حركة العالم من حولها، فضيعت على الأمة إمكانية النهوض الحضاري في الجانب التنموي.

وقد ذكر الجبرتي - في ترجمة والده - أن بعض الطلاب الغربيين تعلموا من والده علم الهندسة، ثم نشروه في بلادهم واستفادوا من هذا العلم في صناعة بعض الآلات، فقال عن والده: «وكان فريدًا في صناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه والأدهان... وحضر إليه طلاب من الإفرنج وقرءوا عليه علم الهندسة - وذلك سنة تسع وخمسين - وأهدوا له من صنائعهم وآلاتهم أشياء

نفيسة، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوة إلى الفعل، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه وغير ذلك. وفي أيام اشتغاله بالرسم رسم ما لا يحصى من المنحرفات والمزاول على الرخامات والبلاط... ونصبها في أماكن كثيرة». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 462).

ولعل عبارة: (وأخرجوه من القوة إلى الفعل) تضع أيدينا على مربط الفرس في تخلفنا عن إحداث النهضة الصناعية، وهو اهتمام الغربيين بتكملة المسار وتجسيد النظرية العلمية في منتجات صناعية، ولا يخفى أن نجاح هذا التجسيد لا يتم إلا بوجود تشجيع حكومي، أو رعاية من مؤسسات المجتمع المدني المهتمة بتبني المواهب العلمية ورعاية اكتشافاتها، وكلا الأمرين كان مفقودًا في التجربة العربية الإسلامية في هذه الحقبة، فالنخبة الحاكمة -كما ذكرنا- كانت مشغولة بنفسها، والمجتمع المدني - لو سلمنا بوجوده في هذه الحقبة -كان من الهشاشة بحيث لا يملك أن يرعى تجربة تنموية تتمخض عن ثورة صناعية، ولا يخفى أن هشاشة المجتمع المدني في هذه الحقبة كانت - ولا تزال - ناجمة عن فساد النخبة الحاكمة: إما عن تعمد؛ حتى لا تتألف من المجتمع المدني مؤسسات وسيطة قوية تسلب النخبة الحاكمة القدرة على الانفراد بالسلطة والثروة، وإما عن إهمال ناجم عن جهل السلطة الحاكمة بشروط النهضة وأسباب السقوط، بينما كان الشاطئ الآخر للمتوسط قد أفاق من تيه القرون الوسطى والتفت إلى إصلاح النخبة الحاكمة وتمكين المجتمع المدني - ومؤسساته الوسيطة - عن وعي بشروط النهضة التي غفلت عنها نخبتنا الحاكمة، فكان السقوط المدوي، والصدمة الحضارية التي تلقتها الأمة على وقع استيلاء الحملة الفرنسية على مصر. ولا يزال هذا الداء العضال مستحكمًا في جسد الأمة ينتظر الجرّاح البارع المخلص الذي يستأصله بمشرط التغيير، وإلى الله المشتكى!

وغفلوا عن متابعة ما يجدُّ على الشاطئ الآخر للمتوسط من: كشوف علمية، وطفرات صناعية، وتغييرات اجتماعية، وثورات شعبية، ونظم سياسية؛ غير مسبوقة، أخرجت أوربا من ظلمات القرون الوسطى، وأدخلتها في عصر النهضة والأنوار.

بينما انصرف قادة أمتنا إلى جمع أكبر قدر ممكن من وسائل الرفاهية والإشباع؛ لخدمة أهواء النخبة الحاكمة[1]، وتركوا الجماهير

(1) قال الجبرتي في وصف حال الرجل الثاني في الدولة المصرية – آنذاك – وبيان أسباب سقوطها: «وعكف مراد بك على لذاته وشهواته، وقضى أكثر زمانه خارج المدينة: مرة بقصره الذي أنشأه بالروضة، وأخرى بجزيرة الذهب، وأخرى بقصر قايماز جهة العادلية، كل ذلك مع مشاركته لإبراهيم بك في الأحكام، والنقض والإبرام... ومقاسمة الأموال والدواوين، وتقليد مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب، وأخذ في بذل الأموال وإنفاقها على أمرائه وأتباعه... ورخص لمماليكه في هفواتهم، وسامحهم في زلاتهم، وحظي عنده كل جريء غشوم عسوف ذميم ظلوم، فانقلبت أوضاعهم، وتبدلت طباعهم، وشرهت نفوسهم، وعلت رءوسهم، فتناظروا وتفاخروا، وطمعوا في أستاذهم وشمخت آنافهم عليه، وأغاروا حتى على ما في يده... وأخذ الشيء من غير حقه وأعطاه لغير مستحقه.

ثم لما ضاق عليه المسالك ورأى أن رضا العالم غاية لا تدرك أخذ يتحجب عن الناس، فعظم فيه الهاجس والوسواس، وكان يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة، ولم يعهد إليه أنه انتصر في حرب باشرها أبدًا، على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور...

البائسة تتجرع مرارة كل صنوف المعاناة التي تقاسيها أمة بائسة تغادر عصور ريادتها إلى مصير مجهول، فأبت حكمة المولى - تبارك وتعالى - إلا أن تفيق الأمة على هول صدمة كبرى تنبهها من رقادها.

«قُدِّر لمصرَ أن تواجه الحملة الفرنسية وهي تحت هذه القيادة المنقسمة، غير الكافية وغير المسئولة، والتي لا تعرف معنى لغير مصالحها الأنانية ولذائذها المنحطة. لقد كانت هذه نقطة الانحدار

واستخلص غالب بلاد إقليم الجيزة لنفسه شراءً ومعاوضةً وغصبًا... وصار يتنقل في تلك القصور والبساتين ويركب للصيد في غالب أوقاته... كل ذلك خطرات من وساوسه، لا يدري أحد لأي شيء هذا الاهتمام؟ ولأي حاجة إنفاق هذا المال في الخشب والحديد وإعطاؤه لنصارى الأروام؟ واختلفت آراء الناس في ذلك: فمن قائل: إن ذلك كان خوفًا من خشداشينه، وقائل: من مخافة العثمانية... والبعض يظن خلاف ذلك، وليس غير الوهم والتخيل الفاسد والخوف شيء، وبقيت آلات الحرب جميعها والبارود... حتى أخذ جميعه الفرنسيس يوم استيلائهم على الجيزة والقصر... وكانت هذه البدعة السيئة من أعظم أسباب قوة الفرنسيس وطمعهم في الإقليم المصري... واختص بالسيد محمد كريم الإسكندري ورفع شأنه بين أقرانه فمهد له الأمور بالثغر به وأجرى أحكامه به وفتح له باب المصادرات والغرامات ودله على مخبآت الأمور، وأخذ أموال التجار من المسلمين وأجناس الإفرنج حتى تجسمت العداوة بين المصريين والفرنسيس، وكان هو من أعظم الأسباب في تملك الفرنسيس للثغر... وهو (مراد) كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري؛ بما تجدد منه - ومن مماليكه وأتباعه - من الجور والتهور ومسامحته لهم. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 450).

العظمى التي وصلت إليها الدولة الإسلامية، وكانت مصر - والعالم الإسلامي كله معها - على تخوم عهد جديد هو عهد الاستعمار[1]».

«ومهما قيل في مبلغ ما كانت عليه الأمة المصرية - في ذلك الحين - من التأخر في العلم والمدنية؛ فإن الحملة الفرنسية - وما اهتاجته في نفوس المصريين من روح المقاومة - قد هزت أعصاب الأمة هزة عنيفة أزاحت عن أبصارها شيئًا من الغشاوة التي رانت عليها في خلال العصور[2]».

ثانيًا- تعد الحملةُ الفرنسية أولَ هجمة حضارية - متشعبة التحديات - تلقتها الأمة في تاريخها؛ فالحملة الفرنسية مثلت تحديَ إزالة الكيان المادي للأمة، كما مثلت تحدي تغيير الكيان المعنوي للأمة، وذلك أنها حاولت أن تبذر في الأمة بذور التبشير والعلمنة والتغريب.

وهذه الهجمة -مركبة التحديات- لم تواجهها الأمة قبل الحملة الفرنسية؛ لأن الحملات الصليبية المتقدمة وإن شكلت خطرًا على الكيان المادي للأمة؛ إذ مارست عمليات استئصال وإبادة واسعة النطاق، إلا أنها لم تمثل خطرًا على الكيان المعنوي للأمة، ذلك أن أوربا في هذا الوقت

(1) محمد الشاويش، نهضات مجهضة.. جدل الهوية والفاعلية، ص 19، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى 1419= 2008.

(2) محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، نقلًا عن الرافعي، ص 259، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الثالثة.

كانت تمتلك قوة عسكرية كفيلة بتهديد جيرانها المسلمين، لكنها لم تكن تمتلك تفوقًا حضاريًّا يمكنها من تهديد هوية الأمة الإسلامية؛ إذ كانت أوربا لا تزال في حالة (التيه الحضاري) الذي عاشته في حقبة القرون الوسطى، وكان التفوق الحضاري للمسلمين على جميع الأصعدة.

ولا يختلف الحال كثيرًا بالنسبة للهجمات التترية على أقطار الأمة الإسلامية، رغم بلوغها حد الاجتياح في ذروة التفوق العسكري التتري، فهذه الهجمات تمكنت من إصابة الكيان المادي للأمة بإصابات غير مسبوقة في تاريخها؛ وذلك بفعل التفوق العسكري التتري المباغت، لكن على صعيد التحدي الحضاري كان التفوق لحضارة الأمة الإسلامية التي لا تساويها ولا تدانيها حضارةُ التتار الوثنية، فكان الذوبان الحضاري من نصيب أعداء الأمس الذين لم يتمكنوا من الصمود أمام روعة الحضارة الإسلامية، فدخلوا في دين الله أفواجًا؛ وذلك بسبب ما كان لدى التتار من خواء حضاري لم يملأه التفوق العسكري، وأنَّى للسيف أن يصمد في ميدان الفكر والقلم والفن والجمال!

ثالثًا- مع الحملة الفرنسية كانت بداية الاستغلال الرخيص - من جانب الغرب - للانقسامات الدينية في الشرق. ومع الغزو الغربي زادت حساسية الشرقيين بتميزهم الديني، بعكس ما تزعم المدرسة الاستعمارية من أن المفهوم القومي - الذي لا يميز بين الأديان - جاءنا هدية من الغرب[1].

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 27.

وترى المدرسة الوطنية[1] في الحملة الفرنسية أنها بداية التحدي الحديث والحاسم الذي واجه الغربُ به الشرقَ الإسلامي.. ذلك التحدي الذي لم يُجَبْ عنه حتى الآن، سواء بسحقه أو الفناء فيه، غير أن هذا التحدي قد استثار عناصر المقاومة في الأمة، ولو أنه لم يصل بالاستثارة إلى المستوى الذي يمكِّن الأمةَ من التغلب على التحدي وقهره، ومن ثم تحقيق البعث الحضاري المنشود وتخطي حافة الخطر. ولا نجح هذا التحدي في سحق مقاومة الأمة نهائيًّا.

وما زالت الأمة العربية والشرق الإسلامي يواجهان هذا التحدي في نوبات من الانفعال وارتفاع مؤقت في حرارة الرفض دون أن يصل إلى الرفض الشامل والمقاومة الخلاقة[2].

رابعًا- أن فهم الواقع الراهن لا يتأتى - على الوجه الأكمل- إلا بالحفر لإدراك المقدمات التاريخية التي أثمرت هذا الواقع، وتعد حقبة الحملة الفرنسية وما اتصل بها، من الأحداث التي كان لها أثر كبير في

(1) يكثر الأستاذ محمد جلال كشك من استعمال هذا المصطلح، ويجعله مقابلًا لما أسماه بـ(المدرسة الاستعمارية)، والفرق بين منهج المدرستين: أن المدرسة الاستعمارية ترى أن القومية والتقدم والتحديث والتحرر؛ كلها معانٍ ومفاهيم وسلوك تكتسب من خلال التعاون مع المحتل، وبمعونته وإرشاده، بينما ترى المدرسة الوطنية أن هذه المفاهيم لا معنى لها إلا إذا كانت مرتبطة بسلوك وطني مقاوم للوجود أو النفوذ الأجنبي بجميع أشكالهما، وأنها لا تكتسب إلا من خلال مقاومة هذا الوجود أو ذلك النفوذ. ودخلت الخيل الأزهر ص 27-29.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 206.

صياغة واقع الأمة على ما هو عليه الآن؛ لأنها الحقبة التي أعيد فيها تشكيل الأقطار العربية الكبرى على أسس استعمارية جديدة تضمن كبح أية نهضة محتملة تنشد إعادة تشكيل الأمة على أسس مناقضة للأسس الاستعمارية سالفة الذكر، ولعل هذا يكشف لنا سرَّ رعب الغرب وأذنابه من الجماعات الناشئة التي تحاول إعادة تشكيل الأقطار العربية والإسلامية على أسس مناقضة لاتفاقية (سايكس - بيكو).

لهذه الأسباب التي أسلفنا ذكرَها؛ كان جُلُّ التركيز في هذه الدراسة على المقاومة الحضارية للتحديات التي صاحبت وأعقبت الحملة الفرنسية؛ إيمانًا منا بأن وضوح الاطلاع على البدايات شرط لازم لسلامة النهايات..

تعريف قرون الانحدار:

بناء على ما سبق يمكن تعريف قرون الانحدار بأنها القرون الثلاثة الأخيرة من عمر الأمة، وهي القرون التي شهدت - في نطاق الداخل- انحلال القيادة وفسادها، وتفكك أواصر الوحدة العربية والإسلامية على وقع انهيار الخلافة، وضعف المجتمعات الإسلامية عن سد الفجوة التي خلفها انحلال القيادة وفسادها[1].

(1) يكمن الفرق بين الحاضر الإسلامي والتجربة التاريخية - من حيث مدى قدرة المجتمع على تغطية سلبيات تراجع الدولة- في أن الدولة في التاريخ الإسلامي كان بها مشكلات عدة، لكن المجتمع كان على قدر من القوة تتيح له أن يسد الخلل، ويجبر النقص، كما أفاد الدكتور إبراهيم غانم في ورقة له عن الدولة والمجتمع، فكان المجتمع قادرًا على الحركة الذاتية الفعالة، وكان يتحرك في إطار صيغة توافقية ضمنية تتكامل فيها وظيفة المجتمع مع وظيفة الدولة.

وكان مما ساعد المجتمع على القيام بوظائفه وجود تشكيلات اجتماعية فعالة تعمل بقدر كبير من الاستقلالية عن الدولة، وكان أهم هذه التشكيلات الاجتماعية: التعليم والوقف، وكان هناك تعارف ضمني على أن تتولى المؤسسات الوسيطة إدارة هذه التشكيلات الاجتماعية، وفي الحالة المصرية كان الأزهر الشريف هو المؤسسة الوسيطة التي تولت إدارة هذين المرفقين باستقلالية إلى أن نزع من الأزهر الصفةُ التمثيلية التي أتاحت له أن يكون المؤسسة الوسيطة التي تمثل همزة الوصل بين العامة والنخبة الحاكمة، وأعيد توزيع هذه الصفة التمثيلية على مؤسسات الدولة الناشئة العلمانية، ونزع – تبعًا لذلك – حق الأزهر في إدارة مرفق الأوقاف باستقلالية، وبقيت إدارته للتعليم الديني تحت رقابة مشددة وتدخل حكومي في تعديل المناهج.

هذا كان في التجربة الإسلامية التاريخية، أما الدولة الحديثة – في المحيط العربي خاصة – فقد نجحت بامتياز في ابتلاع المجتمع وشل قدرته على الفعل الذاتي بدونها، فصار شبه عاجز عن فعل شيء بدونها، بحيث إذا ما سقطت الدولة سقط معها كل شيء، فصار المواطن – في المجتمعات المبتلَعة – في مواجهة مبدأ: (أنا أو الفوضى) بفزاعاته المصنوعة بإحكام؛ لإحباط المواطن الحانق على واقعه البئيس، وقطعِ كل آماله في التغيير الذي يحقق له ما يليق بكرامته الإنسانية.

وكان مما ساهم في إحكام الدولة الحديثة هيمنتها على المجتمع وإضعاف قدرته على الفعل الذاتي: تطورُ وسائل الاتصالات والمواصلات الذي مكن الدولة من الحصول على المعلومة في أقصر وقت ممكن، وتنفيذ قراراتها بأقصى سرعة، بينما كانت الدولة قديمًا تعاني من طول الوقت اللازم للتواصل بين المركز والأطراف، الأمر الذي أفرز توليفة سياسية واقعية تقوم على احترام الأطراف للمركز؛ حفظًا للوحدة الإسلامية، مع كفالة المركز للأطراف حقَّ الحكم المحلي؛ لجبر الخلل الناجم من عدم قدرة المركز على التواصل السريع مع تلك الأطراف.

وشهدت - في نطاق الخارج - أول تفوق معرفي وعسكري كاسح يتمتع به الغرب، الأمر الذي سهل دخول موجات متتابعة من الاحتلال العسكري والفكري إلى أراضي العرب والمسلمين، مع حرص الاحتلال على كبح أية نهضة محتملة يمكن أن تقوم في الشرق الإسلامي وتكسبه استقلالًا يحرره من حالة التبعية للمحتل الغربي.

وبعد هذا التمهيد يحين وقت الحديث المفصل عن الجنود المجهولين في المقاومة الحضارية:

أولاً- العامة:

نعم الشيء الغوغاء.....

الإمام الشعبي

أول الجنود المجهولين وأهمهم - في عمليات المقاومة الجماهيرية - هم العامة، عامة الشعب الذين يعطون بلا حساب، ويندفعون في التضحيات غير مبالين بالعواقب[1]، ولا يلقون بالاً للحسابات الدقيقة التي تحسبها القيادات النخبوية في علاقاتها مع أطراف الصراع والقوى الفاعلة، فتَصدر عن العامة حركاتُ مقاومةٍ عفوية لا تلقى ترحيبًا في بادئ الأمر، لكنها عادةً ما تكون ذات تأثير

وكان من طريف التعليقات التي سمعتها بهذا الصدد قول أستاذنا المستشار طارق البشري: إن المقارنة بين الدولة المستبدة - في صيغتها المعاصرة - وبين سطوة فرعون على الشعب المصري؛ فيها ظلم لفرعون؛ لأن فرعون لم يكن يمتلك إمكانات الدولة المعاصرة في الهيمنة على المجتمع!

(1) وهذا ما يجعل تهمة التهور ملاحِقة لهم باستمرار.

مهم في إنهاك العدو، واستنزاف قواه، وتغييرِ قناعاته عن جدوى استمرار المعركة في ظل نزيف المواجهة التي تفرضها المقاومة.

وقد ظهرت أهمية هذه التحركات الجماهيرية في حقب تاريخية متعددة، ومن أبرزها ثورة القاهرة الأولى ضد الحملة الفرنسية على مصر التي اندلعت شرارتها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى سنة 1213هـ = 21 من أكتوبر 1798، تلك الثورة المباركة التي كان اندلاع شراراتها مفاجأة - غير مرغوب فيها - للقوات الفرنسية وأعضاء الديوان[1] الذي شكله «بونابرت» على حد سواء.

(1) العلاقة بين الديوان وحركة المقاومة تتمثل فيها الإشكالية التاريخية المستمرة للتنازع بين السلطة الوطنية التي تتشكل في ظل الاحتلال وبموافقته وبين المقاومة الشعبية (الجماهيرية) التي لا ترى إمكانية لأن تتخذ العلاقة بالمحتل شكلًا إلا شكل الجهاد والمقاومة، ولا ترى موقفًا يمكن إن يُتخذ تجاه المحتل إلا موقف الصراع الذي يستهدف استئصال وجود المحتل على أرض الوطن مهما كانت التضحيات، وهذه (أعني مقدار التضحيات اللازم بذلها) هي نقطة الخلاف الجوهرية بين المقاومة وهذا النوع من السلطات التي تتشكل في ظروف استثنائية. وعادة ما يسفر الأمر عن وجود السلطة التي تبرر عملها -تحت مظلة الاحتلال- بضرورة وجود ممثل للشعب يعمل على تسيير شئون الناس، والحفاظ على مصالحهم، وتخفيف الأضرار الناجمة عن الاحتلال، بينما ترى المقاومة أن وجود هذه السلطة تحت رعاية الاحتلال يمنحه شرعية واعترافًا يطيل من أمد الاحتلال، ويقوي شوكته، ومن هنا ينشأ الخلاف - أو الصراع - بين رجال السلطة ورجال المقاومة، ويصل هذا الصراع إلى ذروته حين تفشل السلطة -المشكَّلةُ تحت رعاية المحتل- في منع العدوان على الشعب، سواء اتخذ هذا العدوان شكل العمل العسكري، أو كان في

إلا أن هذه المفاجأة كانت أول الأحداث التي زلزلت كيان المحتل، وأقنعته بأن احتلال مصر لن يكون نزهة، وأن الفارق الكبير في موازين القوى - لصالح القوات الفرنسية - لن يُسكِت الجماهيرَ عن إشعال فتيل الثورة ضد المحتل، ولن يمنعها عن الاستماتة في المقاومة رغم فداحة الثمن الذي ستدفعه الأمة جراء المقاومة في ظل ضعف الإمكانات والتفوق (الدنيوي) للمحتل.

أهمية دور العامة في المقاومة الحضارية:

لقد كان للعامة إسهام عظيم في عمليات المقاومة الحضارية، بل لا نبالغ إذا قلنا: إن العامة هم أصحاب الدور الأكبر في مسيرة الأمة النضالية، وإن القيادات التاريخية التي تسلط عليها الأضواء، وتدور حولها الأبحاث، ما كان لها أن تنجح في شيء لولا مساندة العامة لها، وقبولها الانصياع لقيادتها، بل إن العامة كثيرًا ما كانت - بعفوية - تحكم على بعض القيادات

صورة حملات مكثفة من السلب والنهب وامتصاص الموارد؛ حيث تفقد السلطةُ الحجة الأهم التي تستند إليها في تبرير وجودها في ظل الاحتلال، وهنا تنفجر أعمال المقاومة في وجه المحتل والسلطة كليهما، وتجد السلطة نفسَها بين مطرقة الاتهام بالخيانة والعمالة من قِبَل المقاومة، وسندان اتهام الاحتلال لها بالخداع ودعم المقاومة في السر، من هنا يمكن أن نفهم طبيعة الصراع الذي تكون السلطةُ أحد أطرافه في أوقات الاحتلال، كما هنا في حالة ديوان نابليون الذي كان حائرًا بين ترضية المحتل - لكف أذاه عن الشعب إن أحسنَّا الظن- وبين ترضية المقاومة الجماهيرية. وكما في الحالة الفلسطينية على سبيل المثال، غير أن الحالة الفلسطينية آلت إلى وضع مريب صارت فيه السلطةُ أداةً لتجريد القضية من مكاسب المقاومة!

بالحرمان من شرف الاندراج في سلك صناع التغيير؛ وذلك حين يظهر للعامة إخلال هذه القيادات بمؤهلات القيادة المخلصة، ويظهر هذا مثلًا في صنيع العامة مع خليل البكري[1] الذي عينه الفرنسيون نقيبًا للأشراف خلفًا للسيد عمر مكرم[2]؛ حيث سلك البكري المسالك الشائنة في تعامله

(1) هو: خليل البكري الصديقي، سليل آل البكري من الأشراف، تولى نقابة الأشراف بمصر على عهد الحملة الفرنسية خلفًا للسيد عمر مكرم بعد فراره إلى الشام عند دخول الفرنسيين مصر، واشتهر البكري بموالاته للفرنسيين وشدة تداخله معهم، ونال عندهم مكانة عظيمة، وكان عضوًا بارزًا في الديوان الذي شكله الفرنسيون لمساعدة السلطة العسكرية الفرنسية على إدارة شئون البلاد؛ لذلك ثار عليه العامة وأهانوه، وعزل عن نقابة الأشراف بعد جلاء الحملة الفرنسية وعودة العثمانيين، وكسرت رقبة ابنته زينب؛ بسبب علاقاتها المشبوهة مع الفرنسيين وعلى رأسهم نابليون، مات سنة ثلاث وعشرين ومئتين وألف. ينظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 194)، ط: دار الجيل ببيروت؛ د. محمد حواش، خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 552، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.

(2) عُمَر مَكْرَم (1168 – 1237 هـ = 1755 – 1822 م)، هو عمر مكرم بن حسين الأسيوطي: زعيم شعبي مصري، من أسرة شريفة النسب. ولد بأسيوط، وتعلم بالأزهر الشريف. وولي نقابة الأشراف سنة 1208 هـ، ولما احتل الفرنسيون الإسكندرية سنة 1213هـ وزحفوا على القاهرة، تقدم على رأس جمهور من أهالي القاهرة لمقاومتهم، فلم ينجح. وخرج بعد دخولهم، فاستقرّ في « العريش « ثم في « يافا « بفلسطين. وأغار نابليون في السنة نفسها على يافا فاحتلها وقتل من أهلها نحو ستة آلاف كانوا قد استسلموا، وأكرم

مع الفرنسيين، فكانت عاقبته الجزاء الذي ناله من عامة الشعب أثناء وجود الحملة الفرنسية، وبعد الجلاء [1].

من وجد فيها من المصريين، وبينهم عمر مكرم، فعاد هذا إلى القاهرة بعد غياب ثمانية أشهر. واعتزل كل عمل. وعاد نابليون إلى بلاده، وتولى الجنرال «كليبر» حكم مصر. وزحف من الشام جيش عثماني فاقترب من القاهرة، فثار أهلها على الفرنسيين، فكان عمر مكرم على رأس الثورة، وتعرف بثورة القاهرة الثانية، وقاتلوا الفرنسيين 37 يومًا، وضعفوا. وارتد الجيش العثماني عن مصر بعد معارك، فخرج السيد عمر مكرم ناجيًا بنفسه. واغتيل الجنرال كليبر، وأنزل الإنكليز جيشًا في الإسكندرية (سنة 1801 م - 1215 ه) وخرج الفرنسيون من مصر بعد احتلالهم لها ثلاثة أعوام. وعاد إليها عمر مكرم مع الحكام العثمانيين، فأعيدت إليه نقابة الأشراف. ولما نقم المصريون على الوالي « خورشيد باشا « وبرز اسم «محمد علي باشا» تزعم السيد عمر مكرم حركة النقمة -أو الثورة- على الأول والمناصرة للثاني. ونجح محمد علي، فعين واليًا على مصر سنة 1220 هـ (1805 م) فأراد عمر مكرم أن يكون له وهو الزعيم المصري رأي في سياسة البلاد، فتجهم له محمد علي ثم أبعده (سنة 1222 هـ) إلى دمياط، حيث أقام نحو أربعة أعوام. ونقل إلى طنطا سنة 1227هـ، فأقام إلى سنة 1234هـ والتمس من محمد علي الإذن له بالحج، فحجّ ورجع إلى القاهرة. ونشبت فتنة؛ خشي محمد على أن تكون لعمر مكرم يد فيها، فأمره بالانصراف إلى طنطا (سنة 1237 هـ) فلم يلبث أن توفي فيها. قال الرافعي: لم يُعرف فضله ولا كوفئ على جهاده، بل كان نصيبه النفي والحرمان والإقصاء من ميدان العمل، ونكران الجميل. ينظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 202) الأعلام للزركلي (5/ 67).

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 202).

يقول الجبرتي: «وتولى نقابةَ الأشراف السيدُ عمرُ مكرم الأسيوطي، فلما طرق البلادَ الفرنساويةُ تداخل المترجَم (خليل البكري) فيهم، وخرج السيد عمر مع من خرج هاربًا من الفرنساوية إلى بلاد الشام، وعرَّف المترجَم (خليل البكري) الفرنساويةَ أن النقابة كانت لِبيتهم وأنهم غصبوها منه، فقلدوه إياها، واستولى على وقفها وإيرادها، وانفرد بسكن البيت، وصار له قبول عند الفرنساوية، وجعلوه من أعاظم رؤساء الديوان الذي كانوا نظموه لإجراء الأحكام بين المسلمين، فكان وافر الحرمة مسموع الكلمة مقبول الشفاعة عندهم... واستمر على ذلك إلى أن حضر يوسف باشا الوزير[1] في المرة الأولى التي انتقض فيها الصلح[2]، ووقعت الحروب في البلدة

(1) يوسف باشا ضيا، هو الصدر الأعظم العثماني الذي كلفه السلطان سليم الثالث بتخليص مصر من الاحتلال الفرنسي بعدما تبين له عدم استعداد أحمد باشا الجزار للقيام بذلك، وأصله من جورجيا، خاض معارك عدة ضد الفرنسيين، كان أشهرها معركة المطرية في 20 مارس 1800 التي اندلعت على إثرها ثورة القاهرة الثانية. دخل القاهرة بعد جلاء الفرنسيين عنها في يونيو 1801. د. محمد حواش، خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 551.

(2) هو صلح العريش الذي تم في شعبان سنة 1214ه = 24 يناير 1800 بين القوات العثمانية بقيادة الوزير الأعظم يوسف باشا، والقوات الفرنسية في عهد كليبر بقيادة الجنرال (ديزيه) ساري عسكر الصعيد، وكانت تقضي بانسحاب الجيش الفرنسي من مصر، وعودتها إلى السيادة العثمانية، وقد نقض الفرنسيون هذا الصلح بسبب اعتراض بريطانيا على بنوده، وهاجم كليبر الجيش العثماني الذي

بين العثمانية والفرنساوية والأمراء المصرية وأهل البلدة، فهجم على داره المتهورون من العامة ونهبوه وهتكوا حريمه وعرَّوه عن ثيابه وسحبوه بينهم مكشوف الرأس... فشفع فيه الحاضرون وأطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك، وأخذه الخواجا أحمد بن محرم[1] إلى داره وأسكن روعه وألبسه ثيابًا وأكرمه، وبقي بداره إلى أن انقضت أيام الفتنة وظهرت الفرنساوية على المحاربين لهم وخرجوا من البلدة واستقر بها الفرنساوية، فعند ذلك ذهب إليهم وشكا لهم ما حل به بسبب موالاته لهم فعوضوا عليه ما نهب له، ورجع إلى الحالة التي كان عليها معهم... وكان له ابنة (زينب) خرجت عن طورها في أيام الفرنسيس، فلما أشيع حضور الوزير... وظهر على الفرنساوية الخروج من مصر؛ فقتل ابنته المذكورة بيد حاكم الشرطة، فلما استقرت العثمانية بالديار المصرية عزل المترجَم عن نقابة الأشراف وتولاها السيد عمر مكرم كما كان

كان يتأهب لدخول القاهرة بناء على الاتفاق، واستطاع أن يهزم الجيش العثماني في معركة عين شمس (المطرية)، إلا فرقتين من العثمانيين لم تقاتلا، واتجهتا إلى القاهرة بقيادة الوالي العثماني الجديد على مصر (نصوح باشا)، وكانت هذه هي النقطة التي بدأت منها ثورة القاهرة الثانية؛ لأن الشعب المصري انتهز فرصة انشغال الجيش الفرنسي ولبى نداء عمر مكرم الذي خرج من اعتكافه ونادى بالثورة. ينظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 309)؛ محمد الشاويش، نهضات مجهضة 26؛ د. محمد حواش، خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 561.

(1) لم أقف على ترجمته.

قبل الفرنساوية، ولما حضر «محمد باشا خسرو»[1] أنهى إليه الكارهون له بأنه مرتكب للموبقات ويعاقر الشراب وغير ذلك، وأن ابنته كانت تذهب إلى الفرنسيس بعلمه وأنه قتلها خوفًا وتبرئة لنفسه من الشهرة التي لا يمكنه سترها ولا يقبل عذره[2]».

وعلى الرغم من وصف الجبرتي العامةَ بالتهور[3]؛ بسبب ما

(1) تولى على مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 495).

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 202). وما بين الأقواس من زيادتي.

(3) جدير بالذكر أن موقف الجبرتي من الحملة الفرنسية -وطريقة التعامل معها- لم يكن مؤيدًا لخط الثورة، فتراه دائمًا يشنع على الهبّات الشعبية التي تتخذ مسلكًا ثوريًّا، ويصفها بالفتنة التي تتسبب في خراب البلاد، ولحوق الأذى بالعباد، ومن ذلك وصفه لمسلك العامة في تحقير الفرنسيين بعد صلح العريش بقوله: «وأما الرعايا وهمج الناس من أهل مصر فإنهم استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيس بعين الاحتقار وأنزلوهم عن درجة الاعتبار وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية، ولم يفكروا في عواقب الأمور، ولم يتركوا معهم للصلح مكانًا، حتى إن فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقًا وطوائف حسبة وهم يجهرون ويقولون كلامًا مقفّى بأعلى أصواتهم بلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم... وظنوا فروغ القضية ولم يملكوا لأنفسهم صبرًا حتى تنقضي الأيام المشروطة، على أن ذلك لم يثمر إلا الحقد والعداوة التي تأسست في قلوب الفرنسيس وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس. وقال الشعبي من جملة كلام: [وصادفنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء]». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 318).

فعلوه بخليل البكري، إلا أن هذا لا ينفي أهمية الحراك الشعبي في ردع المتعاونين مع المحتل؛ للحفاظ على كيان الأمة المادي وهويتها الدينية والحضارية، ولا يضر هذا الحراكَ وقوعُ بعض التجاوزات، التي لا يخلو عنها نموذج من نماذج الجهاد والمقاومة في التاريخ الإنساني، طالما كان هذا التجاوز نابعًا عن تصرفات فردية غير ممنهجة.

وتتفاوت درجات التأديب الشعبي بحسب شدة الجرم ودرجة الخيانة، فتبدأ بالإهانة كما فعلوا بالبكري، وتنتهي بالتصفية إذا اشتدت الخيانة، كما جرى لابنة البكري وغيرها ممن بلغوا الغاية في التداخل مع المحتل، على حد تعبير الجبرتي.

حكى الجبرتي في حوادث شهر رجب سنة أربع عشر ومئتين وألف: «وفي رابعه قتل جماعة بالرميلة[1] وغيرها ونودي عليهم: هذا جزاء من يتداخل في الفرنسيس والعثملي[2]».

وكان من تداعيات ثورة القاهرة الثانية الانتقام من «مصطفى أغا مستحفظان»؛ لاتهامه بإيواء الفرنسيين، قال الجبرتي: «واتهم مصطفى أغا مستحفظان بموالاته للفرنساوية وأنه عنده في بيته جماعة من الفرنسيس، فهجمت العساكر على داره... فوجدوا أنفارًا قليلة من الفرنسيس فقاتلوا وحامَوا عن أنفسهم وقتل منهم البعض وهرب البعض... وأما الأغا فإنهم قبضوا عليه وأحضروه بين يدي عثمان

(1) جهة بالقرب من القلعة.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 400).

كتخدا، ثم تسلمه الانكشارية وخنقوه ليلًا بالوكالة التي عند باب النصر، ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد[1]».

وتأمل معي في تعبير الجبرتي (ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد)، وما فيها من دلالة على مبلغ احتقار العامة والخاصة للعميل المتعاون مع المحتل، حتى ينتهي به الحال إلى أن يصير جيفة ترمى في المزبلة.

ولا أرى هذا الاحتقار الشعبي للعملاء إلا صورة أخرى من صور المقاومة الجماهيرية التي تفيد في تحقيق الردع الشعبي.

وقال الجبرتي في حوادث شهر صفر سنة 1216ه: «وفي يوم الاثنين قتلوا شخصًا بالرميلة، يسمى حجاجًا، كان متولي الأحكام ببولاق أيام الفرنسيس وجارَ وعسف. وقتل معه آخر يقال: إنه أخوه[2]».

أثر العامة في إعادة هيكلة القيادة في فترات السقوط الحضاري:

لا تتضح أهمية العامة في وقت مثلما تتضح في الأوقات التي تنهار فيها القيادة الرسمية بفعل الهزات الكبرى التي تتعرض لها الأمة، وذلك مثلما جرى في أوقات اجتياح العدو لأرض الإسلام، فحينئذ تجد العامةُ نفسَها في موقع المسئولية المفاجئة التي لم تكن تخطر لها على بال، ولا كانت مستعدة لها بحال؛ لأن غرور القيادة - والتفاتها عن تطوير المجتمع - لم يدع مجالًا لإعداد العامة لتولي زمام القيادة

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 332).
(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 400).

على نحو يقي المجتمع من السقوط المدوي بفعل الهجمات المعادية، فتكون المحصلة هي اضطراب الأمور مدة من الزمان تستغرقها عملية الإفاقة من الصدمة واستيعاب ما جرى مما لم يكن في الحسبان بفعل تغييب العامة من قبل القيادات المغرورة أو العاجزة، لكن يحدثنا التاريخ أن العامة تنجح بعدها في إعادة تنظيم نفسها وإفراز قيادات شعبية حقيقية تكون أصدق تعبيرًا عن تطلعات الجماهير[1]، وتنجح فيما فشلت فيه القيادات الرسمية المنهارة، التي غالبًا ما لا تكون طريقة اختيارها وتعيينها معبرة بدقة عن نبض الجماهير.

هذا ما أثبته لنا التاريخ في وقائع متعددة، وأعاد التاريخ نفسه وقت دخول الحملة الفرنسية على مصر؛ حيث انهارت القيادات الرسمية، ووجدت الجماهير نفسها وجهًا لوجه مع واحدة من أكبر القوى العسكرية الاستعمارية وأشدها تطورًا، وقد حصلت للجماهير صدمة حضارية عنيفة بسبب ما رأت عليه الفرنسيين من تقدم صناعي وعسكري لم يكن في حسبان أحد؛ بسبب أن القيادات الرسمية كانت تعيش في غيبوبة حضارية

(1) وفي هذا الانتخاب الشعبي التلقائي آلية (تعويضية) يلجأ إليها المجتمع المدني في أوقات انحراف السلطة؛ لتعويض غياب الآليات (الشورية) في التصعيد القيادي؛ فتتمخض هذه الحركة الجماهيرية عن تصعيد رجل المرحلة وشخصية الوقت في عملية عجيبة ظاهرها العفوية والفوضوية والعشوائية، وباطنها (السُّنَنية) التي تفرز الخَلْق وتنتخب منهم شخصية الوقت وفق قوانين حضارية أقرتها الإرادة الإلهية في تدبيرها لأمر الأمم في مسيرتها التاريخية.

أقعدتها عن ملاحظة التطور الصناعي والتقني الهائل الذي طرأ على أوربا بعد هزيمة الحملات الصليبية، وعاشت القيادة الرسمية في وهم إمكانية أن يعيد التاريخ نفسه رغم حدوث تغيرات جوهرية أدت إلى طفرة مدنية في الغرب، بينما قعد الشرق الإسلامي عن تطوير نفسه واكتفى بالوهم - اللذيذ- الذي جعله يعيش على ذكرى انتصارات الأجداد العظماء، حتى إن قادة المماليك استهانوا استهانة عجيبة بالقوات الفرنسية الغازية واستكانت العامة لخيالاتهم السقيمة، فكان السقوط المروع، وكانت الصدمة الحضارية العنيفة التي زلزلت كيان الأمة وبددت الأوهام التي حجبت البصائر عن إدراك مدى اتساع الفجوة المدنية بين الشرق والغرب، مما أدى إلى صيرورة الشرق المتجمد فريسةً للغرب الاستعماري الذي تمكن من تغيير موازين القوى لصالحه بعد نجاحه في الثورة الصناعية.

وقد أبدع الجبرتي في وصف هذه الصدمة الحضارية وعرض تحليل بارع شخّص فيه أمراض الأمة في هذه الحقبة التعيسة، فقال:

«سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف: وهي أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون[1]».

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 179).

وقال الجبرتي في بيان سذاجة القيادة وقت وصول الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية: «ثم إن أهل الثغر أرسلوا إلى كاشف البحيرة ليجمع العربان ويأتي معهم للمحافظة بالثغر، فلما قرئت المكاتبات بمصر حصل بها اللغط الكثير من الناس وتحدثوا بذلك فيما بينهم وكثرت المقالات والأراجيف.

ثم ورد في ثالث يوم - بعد ورود المكاتيب الأول- مكاتبات مضمونها أن المراكب التي وردت الثغر عادت راجعة؛ فاطمأن الناس وسكن القيل والقال، وأما الأمراء فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكترثوا به؛ اعتمادًا على قوتهم، وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقابتلهم، وأنهم يدوسونهم بخيولهم.

فلما كان يوم الأربعاء... وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأن في يوم الاثنين... وردت مراكب وعمارات للفرنسيين كثيرة؛ فأرسوا في البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد، فلما نزلوا إليهم عوقوهم عندهم، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمي، وطلعوا إلى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد، فعندها خرج أهل الثغر وما انضم إليهم من العربان المجتمعة وكاشف البحيرة؛ فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم، ولم يثبتوا لحربهم، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان، ورجع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان ودخلت الإفرنج

البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون عن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون، فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال وليس ثَمَّ عندهم للقتال استعداد - لِخُلُوِّ الأبراج من آلات الحرب والبارود، وكثرة العدو وغلبيته - طلب أهل الثغر الأمان؛ فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال[1]».

وقال في بيان فشل الاستعدادات العسكرية لصد الفرنسيين عن دخول القاهرة وما نجم عن ذلك من شيوع الفوضى: «واجتمع باقي الأمراء والعلماء وأخذوا في الاستعداد للثغر وقضاء اللوازم والمهمات في مدة خمسة أيام، فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون ثمن، ثم ارتحل «مراد بك» بعد صلاة الجمعة... ولما ارتحل... أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية الثخن والمتانة وطولها مائة ذراع وثلاثون ذراعًا؛ لتنصب على البغاز عند برج مغيزل من البر إلى البر؛ لتمنع مراكب الفرنسيين من العبور لبحر النيل وذلك بإشارة «علي باشا»، وأن يُعمَل عندها جسر من المراكب ويُنصَب عليها متاريس ومدافع؛ ظنًّا منهم أن الإفرنج لا يقدرون على محاربتهم في البر وأنهم يعبرون في المراكب ويقاتلونهم وهم في المراكب، وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم في القتال حتى تأتيهم النجدة، وكان الأمر بخلاف ذلك؛ فإن الفرنسيس عندما ملكوا الأسكندرية ساروا على طريق البر الغربي من غير ممانع. وفي أثناء

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 180).

خروج «مراد بك» والحركة؛ بدت الوحشة في الأسواق، وكثر الهرج بين الناس والإرجاف، وانقطعت الطرق، وأخذت الحرامية في كل ليلة تطرق أطراف البلد، وانقطع مشي الناس من المرور في الطرق والأسواق من المغرب[1]».

وأحسن الجبرتي تشخيص أسباب الهزيمة التي تسببت في استيلاء الفرنسيين على القاهرة فقال: «ثم في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر، وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجيء منها، فمنهم من يقول: إنهم واصلون من البر الغربي، ومنهم من يقول: بل يأتون من الشرقي، ومنهم من يقول: بل يأتون من الجهتين، هذا، وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسًا أو طليعة تناوشهم بالقتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء المصر، بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو. ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت، فوصلوا إلى (أم دينار) فعندها اجتمع العالَم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورةِ بلادُهم لمصر، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم، منحلة عزائمهم، مختلفة آراؤهم، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مختالون في رئيسهم، مغترون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون في رويتهم، مغمورون في غفلتهم، وهذا كله من

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 182).

أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم... ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس «مراد بك» ترامى الفريقان بالمدافع... فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال؛ ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم: يا رب، ويا لطيف، ويا رجال الله، ونحو ذلك، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم، فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم: (إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح) فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه، ومن يقرأ ومن يسمع! وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرض الشرقي - ومنهم «إبراهيم بك» الوالي - وشرعوا في التعدية إلى البر الغربي في المراكب فتزاحموا على المعادي؛ لكون التعدية من محل واحد، والمراكب قليلة جدًّا؛ فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة به على المحاربين، هذا والريح النكباء اشتد هبوبها، وأمواج البحر في قوة اضطرابها، والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين؛ فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو، وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه[1]».

قال الأستاذ «محمد جلال كشك» - تعليقًا على وصف الجبرتي -: «ولا أظن أن محللًا ديالكتيكيًّا معاصرًا يستطيع أن يقدم تشريحًا لطبقة منهارة وجيش انتهى دوره كقوة مقاتلة مثلما فعل الشيخ الجبرتي

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 188).

الأزهري، مما يؤكد أن فهم قوانين التخلف لم يكن مستعصيًا على شيوخ الأزهر، ولكن لم يسعفهم الدهر[1]».

وقال الجبرتي في بيان أحول الناس بعد الهزيمة: «فلما عاين العامة والرعية ذلك؛ اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم، والحال أن الجميع لا يدرون أي جهة يسلكون وأي طريق يذهبون وأي محل يستقرون؛ فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدَب ينسلون، وبِيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثرهم ماشيًا أو حاملًا متاعه على رأسه وزوجتُه حاملة طفلها، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات وأطفالهن على اكتافهن يبكين في ظلمة الليل، واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها، وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع، فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته؛ فكان ما أخذته العرب شيئًا كثيرًا يفوق الحصر؛ بحيث إن الأموال والذخائر التي خرجت من مصر في تلك الليلة أضعاف ما بقي فيها بلا شك؛ لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم وقد أخذوه صُحبتَهم، وغالب مساتير الناس وأصحاب المقدرة أخرجوا أيضًا ما عندهم، والذي

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 164.

أقعده العجز وكان عنده ما يعز عليه من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل، ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين، فذهب ذلك جميعه وربما قتلوا من قدروا عليه أو دافع عن نفسه ومتاعه، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان، فمنهم من رجع من قريب - وهم الذين تأخروا في الخروج وبلغهم ما حصل للسابقين - ومنهم من جازف متكلًا على كثرته وعزوته وخفارته فسلم أو عطب، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة: جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين، فما راءٍ كمن سمعا!».

«كانت مصر غير متأهبة إطلاقًا لصدمة نزول الجيوش الفرنسية على أرضها، ولم يكن لديها سبيل لمعرفة أن هذا الغزو لا يشبه في شيء أيَّ غزو حدث للبلاد في الماضي. وأن هذه الحملة تعني انهيار العصور الوسطى في الشرق الأدنى[1]»

كانت الصدمة التاريخية التي أحدثتها مدافع الفرنسيين كافية لتبديد ليل الغفلة -والأمن الكاذب- الذي عاشته الشعوب العربية مخدرة بانتصاراتها على الصليبيين وبالفتوح العثمانية، وكانت ردة الفعل هي الاستجابة للتحدي ومحاولة التغلب عليه بامتلاك وسائل المعرفة التي نقلت التفوق للجانب الآخر من البحر الأبيض[2].

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 155.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 177.

ثانياً: القيادات الجديدة:

بعد انهيار القيادات الرسمية – للأسباب السالف ذكرها تفصيلًا- سرعان ما أعادت الجماهير تنظيم نفسها، وتجديد نخبتها، واستبدال القيادات الشعبية الحقيقية -المعبرة عن نبض الشارع المصري- بالقيادات الرسمية الهشة التي تسببت في ضياع الأمة؛ بجهلها وتخلفها الفكري فضلًا عن أنانيتها وجعلها مصالح الأمة في ذيل قائمة اهتماماتها.

وكأن العناية الإلهية تأبى إلا أن تعمل سنة الاستبدال عملها في تصعيد رجال المرحلة -المغمورين بين العامة- بعد أن يصير الزمان زمانهم، فتتفجر طاقاتهم وتعمل مواهبهم بما لم يكن يخطر لأحد على بال.

يقول الأستاذ «محمد جلال كشك» في وصف الحالة العامة بعد اجتياح الحملة الفرنسية للقاهرة: «وبانهيار القيادة الرسمية انبثقت قيادة جديدة من المشايخ الصغار، باعتبار أن المشايخ الكبار كانوا مع الخارجين... أو يتعذر عليهم -بحكم مكانتهم- أن يبدءوا هم الاتصال بالسلطة الجديدة، فاجتمع هؤلاء وتشاوروا وقرروا مفاوضة الغازي[1]،

(1) قال الجبرتي: «وركب الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجيزة فتلقاهم (يعني ساري عسكر) وضحك لهم وقال: أنتم المشايخ الكبار، فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا، فقال: لأي شيء يهربون؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانًا لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة؛ فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان، ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشاء وحضروا إلى مصر، واطمأن برجوعهم الناس وكانوا

وسنرى أن ذات الجماهير التي تصرفت على هذا النحو عندما سقطت قيادتها الرسمية أو حتى في ظل هذه القيادة.. ذات الجماهير تحولت إلى قوة مقاتلة متشبثة بأرضها تعرف كيف تستخدم السلاح، بل وتصنعه، وتواجه ذات الجيش الذي قابلته بالصياح وفرت فور انتصاره.. ستقاتل من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع عندما تحمل هي مسئولية الدفاع عن وطنها. وستظهر قيادة جديدة من بينها وتقودها إلى تحقيقه[1].

التنظيم الشعبي ذو القيادة (المنتخبة):

بعد الصدمة التي بددت كل الأوهام عن حالة العدو، وبعد تجديد دماء القيادة؛ كان لا بد من تغيير يسفر عن وضع استيراتيجيات جديدة في طريقة التعامل مع المحتل، فتمخضت هذه التفاعلات عن حراك شعبي جديد كان له أكبر الأثر في إنهاك العدو وإجباره على مراجعة حساباته التي بنى عليها خطته الاستعمارية.

ويسجل بعض الشهود والمؤرخين أن عمليات إعادة التنظيم التي أعقبت الانهيار الكبير وقت دخول الحملة الفرنسية قد تمخضت عن إنشاء تنظيم شعبي يؤجج نيران الثورة، فدخلت مصر بهذا عصر التنظيمات الشعبية ذاتية القيادة.

في وجل وخوف على غيابهم، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ؛ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي والمشايخ ومن انضم إليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية، وأما عمر أفندي نقيب الأشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 192).

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 166.

يقول «نابليون» في مذكراته عن ثورة القاهرة الأولى: «إن الشعب قد انتخب (ديوانًا) للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة، وإن الشيخ السادات[1] انتُخب رئيسًا لهذا الديوان».

(1) هو: الأستاذ الشهير والجهبذ النحرير الرئيس المفضل والفريد المبجل نادرة عصره ووحيد دهره، الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار ابن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين، سبط بني الوفاء، وخليفة السادات الحنفاء، وشيخ سجادتها ومحط رحال سيادتها، وأمه السيدة صفية بنت الأستاذ جمال الدين يوسف أبي الإرشاد ابن وفا، تزوج بها الخواجا عبد الرحمن المعروف بعارفين فأولدها المترجَم وأخاه الشيخ يوسف، وكان أسن منه، فتربى مع أخيه في حجر السيادة والصيانة والحشمة وقراء القرآن، وتولع بطلب العلم وحضر دروس أشياخ الوقت وتلقى طريقة أسلافه عن خاله الأستاذ شمس الدين محمد أبي الإشراق ابن وفا عن عمه الشيخ عبد الخالق... إلى آخر السند المنتهي إلى الأستاذ أبي الحسن الشاذلي، وحج سنة تسع وسبعين ومائة وألف، وتزوج عقب عودته من الحج، وتقلد مشيخة السادات الوفائية سنة 1182ه، وانتظم أمره وحسن سلوكه بشهامة وحشمة ورئاسة وتؤدة وأدب مع الأشياخ والأقران وتحبب إلى أرباب المظاهر والأكابر واستجلاب الخواطر وسلوك الطرائق الحميدة والتباعد عن الأمور المخلة بالمروءة والأخذ بالحزم والرفق مع الاشتغال في بعض الأحيان بالمطالعة والمذاكرة في المسائل الدينية والأدبية ومعاشرة الفضلاء ومجالستهم والمناقشة معهم في النكات واقتناء الكتب من كل فن، كل ذلك مع الجد والتحصيل للأسباب الدنيوية وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن تداخل وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار، ولما انقرضت بقايا الشيوخ الذين كان يهابهم ويخضع لهم ويتأدب معهم وكانوا على طرائق الأقدمين في العفة والانجماع عما يخل بتعظيم العلم وأهله والتباعد عن بني الدنيا إلا بقدر الضرورة، وخلف من بعدهم من هم على خلاف ذلك، وهم

وتأمل معي في عبارة (إن الشعب قد انتخب ديوانًا للثورة) وتساءل

أعاظم مدرسي الوقت فأحدقوا به وأكثروا من الترداد عليه وعلى موائده وبالغوا في تعظيمه وتقبيل يده ومدحوه بالقصائد البليغة؛ طمعًا في صِلاته وجوائزه القليلة وحصول الشهرة لهم وزوال الخمول والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر وزاد هو أيضًا وجهًا ووجاهة بمجالستهم. وكان إبراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة، وكذلك مراد بك أودع عند محمد أفندي البكري وديعة، وعلم ذلك حسن باشا القبطان فأرسل عسكرًا إلى السيد البكري، فلم تسعه المخالفة وسلم ما عنده، وأرسل كذلك يطلب من الشيخ السادات وديعة إبراهيم بك فامتنع من دفعها قائلًا: (إن صاحبها لم يمت وقد كتبت على نفسي وثيقة؛ فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها في قيد الحياة) فاشتد غيظ الباشا منه وقصد البطش به فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق، فكان يقول: لم أرَ في جميع الممالك التي ولجتها من اجترأ على مخالفتي مثل هذا الرجل؛ فإنه أحرق قلبي، وفي عقب ذلك نزل السيد محمد أفندي البكري المذكور عن وظيفة نظر المشهد الحسيني للشيخ السادات وأرسل إليه بصندوق دفاتر الوقف. وذكر الجبرتي أن الشيخ السادات قد فتنته الدنيا وأولع بتحصيل أسباب الرفاهية والرياسة، واستطال على العامة لما عظُم نفوذه، وحقد على السيد عمر مكرم وطمِع في تولي نقابة الأشراف بدلًا عنه، وتم له ذلك في عهد محمد علي. وفي يوم الأحد ثامن عشر ربيع الأول سنة 1228ه= 1814م توفي إلى رحمة الله تعالى وقت العصر، فلما أصبح يوم الاثنين غسل وكفن، وصلوا عليه بالأزهر بعد ما أنشد المنشد مرثية من إنشاء العلامة الشيخ حسن العطار، وجعل براعة استهلالها الإشارة إلى ما كان عليه المترجَم من التعاظم والتفاخر فقال: (سلام على الدنيا فقد ذهب الفخر)، ثم حمل إلى مشهد أسلافه بالقرافة ودفن في التربة التي أعدها لنفسه بجانب مقام جدهم. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 419-430).

معي عن دلالات هذه العبارة حين تصدر عن «نابليون» الذي شكل ديوانًا يعين الحملة الفرنسية على إدارة شئون البلاد؟

ولعلك عزيزي القارئ تشاطرني الرأي في أن ديوان «نابليون» لم يكن ديوان الشعب[1]، وأن الشعب كان يدرك هذا؛ لذا تراه قد انتخب الديوان الحقيقي الذي يمثله، ويعبر عن تطلعاته.

«والرافعي يقرر أن دعاة الحركة تعاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد 21 أكتوبر 1798؛ لرسم الخطة الواجب اتباعها، فاجتمعوا، وكان عددهم في ذلك الاجتماع ثلاثين، فاتفق رأيهم على البدء بالعمل في اليوم التالي، وأزمعوا إقفال الدكاكين ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب - بجمع كبير- من الشاكين[2] إلى مركز القيادة العامة؛ لرفع الصوت احتجاجًا على الضرائب الجديدة، وبذلك تحدث في المدينة حركة يكون منها الشغب والهياج فتكون مقدمة للثورة[3]».

وهذا النص من الرافعي يثبت أن قيادات التنظيم السري الجديد كانوا على وعي بمعنى الثورة، والمقدمات اللازمة للوصول إلى (الكتلة الحرجة الثورية)، ولا يخفى على القارئ الفَطِن أن هذا الوعي

---

(1) وإن كنا نرفض تعميم الحكم على أعضاء الديوان بالعمالة للمحتل، ونرى أن الحكم يكون على كل شخص على حدة؛ بناء على نيته في المشاركة واجتهاده الذي دعاه للمشاركة في هذا الديوان.

(2) أي: المحتجين على الضرائب التي فرضها المحتل.

(3) ودخلت الخيل الأزهر ص 210.

لا يمكن أن يتأتى إلا عن خبرة سابقة بالعمل الثوري. ومن هنا يمكن أن نستنتج أن قيادات وأعضاء هذا التنظيم الثوري (المنتخب) كانوا ممن شارك في الثورات التي قام بها الشعب ضد مظالم المماليك والعثمانيين، ولا يخفى الدور الأساسي الذي كان يقوم به مشايخ وطلاب الأزهر في قيادة هذه الثورات بمساندة عامة الشعب والتجار وشيوخ الحرف.

معايير التصعيد الجماهيري للقيادات الشعبية:

من المهم البحث في معايير التصعيد الشعبي التلقائي التي على أساسها يتم تصعيد القيادات الشعبية، لا سيما بعد انهيار القيادات الرسمية – المعيَّنة عادة – في أوقات الصدمات الحضارية الكبرى التي تلقتها الأمة في قرون الانحدار.

وباستقراء أحداث التاريخ يمكن أن نستخلص أن هناك صنفين من المعايير: المعيار الشخصي، والمعيار الموضوعي.

فالمعيار الشخصي هو الذي يلاحِظ – فيمن يتم تصعيده – سمات شخصية بارزة هي من سمات القادة التاريخيين العظماء، مثل القوة والشجاعة والذكاء والجَلَد والفصاحة... وما شابهها من سمات القادة العظماء على مر العصور، فهذه السمات تلفت أنظار الجماهير الباحثة عن رجل المرحلة، فتجد بغيتها فيمن يستجمع القدْرَ الأكبر منها كمًّا وكيفًا.

وهناك معيار موضوعي يتم على أساسه تصعيد القيادات الشعبية، وهو الذي أشار إليه مشايخ الأزهر في قولهم لأمراء المماليك: «والأمير يكون أميرًا بالإعطاء لا بالأخذ [1]»، فالإنسان الذي يعطي بلا حساب ولا ينتظر المقابل يكون ذا شخصية آسرة تجمع حولها قلوب الخلق، وتنال ثقة الناس، وتكسب محبتهم واحترامهم، فهذا هو الأمير الحقُّ الذي امتلك قلوب الناس؛ بالتفاني في العطاء والإيثار، وهذا من الناموس الذي فطر الله الناس عليه، فقلوب الخلق جبلت على حب الإحسان والمحسنين، والولع بأصحاب المبادئ الذين يؤثرون العطاء على الأخذ، والبذل على المنع، وقد قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

ومثل هذا الانجذاب الجماهيري يُثمِر التصعيدَ العفوي للإنسان المعطاء ذي المبادئ الفاضلة، فيئول الحال إلى صيرورته في محل القيادة، وفي التاريخ الكثيرُ من النماذج لهذا المعيار، منها تصعيد الخلفاء الراشدين، لا سيما عثمان بن عفان، فقد ورد في بعض الروايات أن عبد الرحمن بن عوف ذكر لعلي بن أبي طالب: أنه استطلع حالة الرضا العام؛ فوجد أنهم لا يرضون بعثمان بدلًا؛ فترجح تصعيد عثمان بعد البيعة.

---

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 166- 167).

ولو قارنا بين علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان - من حيث السمات الذاتية والمواهب الشخصية - لكانت المقارنة في صالح علي بن أبي طالب؛ لأنه أوسع مواهب، أما لو قارنا بينهما من حيث مقدار العطاء والخدمات العامة التي بذلها كل منهما؛ لكانت المقارنة لصالح عثمان بن عفان؛ فتاريخه في البذل والإيثار معروف للصغير والكبير، وحياته حافلة بمواقف العطاء التي كانت سببًا في تنفيس الكربات عن الأمة في أوقات الأزمات، ففي الحالة العثمانية تغلَّب المعيارُ الموضوعي على المعيار الشخصي، فأثمر تصعيد عثمان بعد مقتل الفاروق عمر، رضي الله عن الجميع.

المعيار الموضوعي:

بعد هذا التمهيد -في معايير التصعيد الجماهيري للقيادات الشعبية بوسيلة الانتخاب الشعبي العفوي- نعود فنقول:

إن كلا المعيارين قد عمل عملَه في التصعيد الشعبي -سالف الذكر- للقيادات الشعبية في قرون الانحدار، لكن الذي يبدو للباحث: أن المعيار الموضوعي كان صاحب النصيب الأوفر من الإعمال في تصعيد القادة وفقًا له، وفيما يأتي نعرض لنماذج ظهر فيها أثر المعيار الموضوعي في التصعيد الجماهيري للقيادات الشعبية التي كان لها باع في المقاومة الحضارية في قرون الانحدار..

النموذج الأول- الإمام علي الصعيدي[1]:

يظهر أثر المعيار الموضوعي في سيرة الشيخ الإمام علي الصعيدي – رحمه الله تعالى – فقد كان لعطائه الواسع في ميدان العلم والعمل الصالح، وجهاده في الدفاع عن حقوق الضعفاء أثر

(1) الشيخ علي العَدَوِي (1112 – 1189 هـ = 1700 – 1775 م)، هو من رموز المقاومة الحضارية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري = الثامن عشر الميلادي، وهو: علي بن أحمد بن مكرم الله الصعيدي، العدوي، المالكي، الأزهري، الشهير بالصعيدي، فقيه، محدث، أصولي، متكلم، منطقي. ولد ببني عدي من أعمال أسيوط، وتوفي بالقاهرة في 10 رجب. من تصانيفه: إتحاف المريد لجوهرة التوحيد، وكان شيخ الشيوخ في عصره، قال الجبرتي في ترجمته: «مات الإمام الهمام شيخ مشايخ الإسلام، عالم العلماء الأعلام، إمام المحققين وعمدة المدققين، الشيخ علي بن أحمد بن مكرم الله الصعيدى العدوى المالكي، ولد ببني عدى -كما أخبر عن نفسه- سنة 1112... وقدم إلى مصر وحضر دروس المشايخ... ودرس بالأزهر وغيره. وقد بارك الله في أصحابه -طبقة بعد طبقة- كما هو مشاهد، وكان يحكي عن نفسه أنه طالما كان يبيت بالجوع في مبدأ اشتغاله بالعلم وكان لا يقدر على ثمن الورق ومع ذلك إن وجد شيئًا تصدق به. وقد تكررت له بشارات حسنة منامًا ويقظة، وله مؤلفات دالة على فضله... وكان قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية فهو أول من خدم تلك الكتب بها... وتوفي في عاشر رجب من السنة، وصُلِّيَ عليه بالأزهر بمشهد عظيم... ولم يخلف بعده مثله». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 479). وينظر في ترجمته أيضًا: معجم المؤلفين (7/ 29)، الأعلام للزركلي (4/ 260).

عظيم في المكانة القيادية التي تبوأها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري.

قال الجبرتي في ترجمة الإمام الصعيدي: «وكان - رحمه الله - شديد الشكيمة في الدين؛ يصدع بالحق، ويأمر بالمعروف وإقامة الشريعة، ويحب الاجتهاد في طلب العلم، ويكره سفاسف الأمور، وينهى عن شرب الدخان، ويمنع من شربه بحضرته وبحضرة أهل العلم؛ تعظيمًا لهم. وإذا دخل منزلًا من منازل الأمراء ورأى من يشرب الدخان.. شنَّع عليه وكسر آلته، ولو كانت في يد كبير الأمراء. وشاع عنه ذلك وعرف في جميع الخاص والعام وتركوه بحضرته فكانوا عندما يرونه مقبلًا من بعيد؛ نبه بعضهم بعضًا ورفعوا شبكاتهم وأقصابهم وأخفوها عنه، وإن رأى شيئًا منها؛ أنكر عليهم ووبخهم وعنفهم وزجرهم، حتى إن «علي بك» في أيام إمارته كان إذا دخل عليه في حاجة أو شفاعة أخبروه قبل وصوله إلى مجلسه؛ فيرفع الشبك من يده ويخفوه من وجهه، وذلك مع عتوه وتجبره وتكبره. واتفق أنه دخل عليه في بعض الأوقات فتلقاه على عادته وقبّل يده وجلس، فسكت الأمير مفكرًا في أمر من الأمور؛ فظن الشيخ إعراضه عنه؛ فأخذته الحدة وقال مخاطبًا له باللغة الصعيدية: (يامين يامين، هو غضبك ورضاك على حد سواء، بل غضبك خير من رضاك)، وكرر ذلك وقام... وهو يأخذ بخاطره ويقول: (أنا لم أغضب من شيء) ويستعطفه. فلم يجبه ولم يجلس ثانيًا وخرج ذاهبًا... واستمر الشيخ منقطعًا عن الدخول إليه مدة حتى ركب في ليلة من ليالي رمضان مع الشيخ الوالد (يعني والد

الجبرتي) في حاجة عند بعض الأمراء ومرَّا ببيت «علي بك» فقال له: ادخل بنا نسلم عليه،

فقال: يا شيخنا أنا لا أدخل..

فقال: لا بد من دخولك معي. فلم تسعه مخالفته، وانسر بذلك «علي بك» تلك الليلة سرورًا كثيرًا.

ولما مات «علي بك» واستقل «محمد بك أبو الذهب» بإمارة مصر،كان يجل من شأنه ويحبه ولا يرد شفاعته في شيء أبدًا، وكل من تعسر عليه قضاء حاجة ذهب إلى الشيخ وأنهى إليه قصته فيكتبها مع غيرها في قائمة حتى تمتلئ الورقة ثم يذهب إلى الأمير بعد يومين أو ثلاثة فعندما يستقر في الجلوس، يخرج القائمة من جيبه ويقص ما فيها من القصص والدعاوى واحدة بعد واحدة، ويأمره بقضاء كل منها والأمير لا يخالفه ولا ينقبض خاطره في شيء من ذلك... وكان على قدم السلف في الاشتغال والقناعة وشرف النفس وعدم التصنع والتقوى، ولا يركب إلا الحمار، ويواسي أهله وأقاربه، ويرسل إلى فقرائهم - ببلده - الصِّلاتِ والأكسية والبَزَّ والطرح -للنساء- والعصائب والمداسات، وغير ذلك[1]».

وكانت حياة «الشيخ الصعيدي» حافلة بمواقف المقاومة الحضارية التي تجلت فيها جرأة الشيخ في التصدي للمظالم.

---

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 487).

ومن هذا القبيل: حادثة تحرير «الشيخ عبد الباقي» من سجن الأمير (يوسف بك الكبير) الذي كان يناصب المشايخ العداء، وتمام القصة كما أوردها الجبرتي أن «الشيخ عبد الباقي – ابن الشيخ عبد الوهاب العفيفي– طلق على زوج بنت أخيه في غيابه، على يد الشيخ حسن الجداوى المالكي على قاعدة مذهبه، وزوجها من آخر وحضر زوجها من الفيوم وذهب إلى ذلك الأمير وشكا له «الشيخَ عبد الباقي»؛ فطلبه فوجده غائبًا في منية عفيف؛ فأرسل إليه أعوانًا أهانوه وقبضوا عليه ووضعوا الحديد في رقبته ورجليه وأحضروه في صورة منكرة، وحبسه في حاصل أرباب الجرائم من الفلاحين. فركب الشيخ علي الصعيدي العدوى والشيخ الجداوى وجماعة كثيرة من المتعممين وذهبوا إليه، وخاطبه الشيخ الصعيدي فقال له: هذا قول في مذهب المالكية معمول به..

فقال: من يقول: إن المرأة تطلق زوجها إذا غاب عنها وعندها ما تنفقه وما تصرفه ووكيله يعطيها ما تطلبه ثم يأتي من غيبته فيجدها مع غيره.

فقالوا له: نحن أعلم بالأحكام الشرعية.

فقال: لو رأيت الشيخ الذي فسخ النكاح.

فقال الشيخ الجداوى: أنا الذي فسخت النكاح على قاعدة مذهبي.

فقام على أقدامه وصرخ وقال:– والله– أكسر رأسك.

فصرخ عليه الشيخ علي الصعيدي وسبه وقال له: لعنك الله ولعن

اليسرجي[1] الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرًا.

فتوسط بينهم الحاضرون من الأمراء يُسَكِّنون حدته وحدتهم، وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس فأخذوه وخرجوا وهم يسبونه وهو يسمعهم»[2].

النموذج الثاني- الإمام الدردير[3]:

يظهر أثر المعيار الموضوعي في سيرة الإمام الدردير -رحمه الله تعالى- فقد كان لعطائه الواسع في ميدان العلم والعمل الصالح، وجهاده

(1) تاجر العبيد.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 512).

(3) الدَّرْدِير (1127 - 1201 هـ = 1715 - 1786 م)، هو: الإمام العالم العلامة، أوحد وقته في الفنون العقلية والنقلية، شيخ أهل الإسلام، وبركة الأنام، الشيخ/ أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي حامد، العَدَوي، المالكي، الأزهري، الخلوتي، أبو البركات، الشهير بالدردير: فقيه، صوفي. ولد في بني عَدِيّ (بمحافظة أسيوط)، وتعلم بالأزهر، وأفتي في حياة شيوخه مع كمال الصيانة والزهد والعفة والديانة وكرم الأخلاق، ولي مشيخة الطريقة الخلوتية، ولما توفي الشيخ علي الصعيدي تعين الإمام الدردير شيخًا على المالكية ومفتيًا وناظرًا على وقف الصعايدة، وشيخًا على طائفة الرواق، وله في السعي على الخير يد بيضاء، وتوفي بالقاهرة في 6 ربيع الأول، وصُلِّيَ عليه بالأزهر بمشهد عظيم حافل. ودفن بزاويته التي أنشأها بجوار ضريح سيدي يحيى بن عقب، ولم يخلف بعده مثله. ومن كتبه (أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك) في شرح مختصر خليل، فقه، و(تحفة الإخوان في علم البيان)، و(رسالة في متشابهات القرآن). ينظر في ترجمته رحمه الله تعالى: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 32)، الأعلام للزركلي (1/ 244)، معجم المؤلفين لرضا كحالة (2/ 67).

في الدفاع عن حقوق الضعفاء - أثر عظيم في المكانة القيادية التي تبوأها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، قال الجبرتي في ترجمة الإمام الدردير: «ولما توفي الشيخ علي الصعيدي تعين الإمام الدردير شيخًا على المالكية ومفتيًا وناظرًا على وقف الصعايدة، وشيخًا على طائفة الرواق، بل شيخًا على أهل مصر بأسرها في وقته حسًّا ومعنى؛ فإنه كان -رحمه الله- يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويصدع بالحق ولا يأخذه في الله لومة لائم، وله في السعي على الخير يد بيضاء، وتوفي بالقاهرة في 6 ربيع الأول، وصلي عليه بالأزهر بمشهد عظيم حافل. ودفن بزاويته[1] التي أنشأها بجوار ضريح سيدي يحيى بن عقب، وسبب إنشائه للزاوية: أن مولاي محمدًا سلطان المغرب كان له صلات يرسلها لعلماء الأزهر وخَدَمة الأضرحة وأهل الحرمين في بعض السنين، وتكرر منه ذلك فأرسل على عادته - في سنة 1198هـ - مبلغًا وللشيخ الدردير قدرًا معينًا، وكان لمولاي محمد ولد تخلَّف بعد الحج وأقام بمصر مدة حتى نفد ما عنده من النفقة، فلما وصلت تلك الصلة أراد أخذها ممن هي في يده فامتنع عليه وشاع خبر ذلك في الناس وأرباب الصلات وذهبوا إلى الشيخ بحصته فسأل عن قضية ابن السلطان فأخبروه عنها وعن قصده، وأنه لم يتمكن من ذلك، فقال الإمام الدردير: (والله هذا لا يجوز، وكيف أننا نتفكه في مال الرجل ونحن أجانب وولده يتلظى من العدم؟

(1) وتعرف الآن بمسجد وضريح الشيخ الدردير، في حي الباطنية، بجوار الجامع الأزهر الشريف.

هو أولى مني وأحق؛ أعطوه قسمي)، فأعطاه ذلك، ولما رجع رسول أبيه أخبر السلطان والده بما فعل «الشيخ الدردير»؛ فشكره على فعله وأثنى عليه واعتقد صلاحه وأرسل له في ثاني عام عشرة أمثال الصلة المتقدمة؛ مجازاة للحسنة، فقبلها الأستاذ وحج منها، ولما رجع من الحج بنى هذه الزاوية مما بقي، ودفن بها- رحمه الله تعالى - ولم يخلف بعده مثله»[1].

وكانت حياة «الشيخ الدردير» حلقة متصلة من الجهاد العلمي والشعبي، تجلت فيها شجاعة الشيخ في الصدع بكلمة الحق والدفاع عن حقوق المظلومين من العامة، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في تبؤ الشيخ للمكانة العظيمة التي نالها في حياته وبعد مماته.

ذكر الجبرتي في حوادث سنة إحدى وتسعين ومائة وألف: «وفيها - في أوائل شهر جمادى الأولى- وقعت حادثة في طائفة المغاربة المجاورين بالجامع الأزهر، وذلك أنه آل إليهم مكان موقوف، وجحد واضع اليد ذلك والتجأ إلى بعض الأمراء، وكتبوا فتوى في شأن ذلك، واختلفوا في ثبوت الوقف بالإشاعة، ثم أقاموا الدعاوى في المحكمة وثبت الحق للمغاربة، ووقع بينهم منازعات، وعزلوا شيخهم وولوا آخر، وكان المندفع في الخصومة واللسانة شيخًا منهم يسمى (الشيخ عباس) والأمير الملتجئ إليه الخصم (يوسف بك) فلما ترافعوا وظهر الحق على خلاف غرض الأمير؛ حنق لذلك ونسبهم إلى ارتكاب الباطل، فأرسل من طرفه من يقبض على الشيخ عباس المذكور من بين المجاورين، فطردوا المعينين وشتموهم

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 34) بتصرف.

وأخبروا الشيخ أحمد الدردير؛ فكتب مراسلة إلى «يوسف بك» تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعي، وأرسلها صحبة «الشيخ عبد الرحمن الفرنوى» وآخرين، فعندما وصلوا إليه وأعطوه التذكرة؛ نهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس. ووصل الخبر إلى «الشيخ الدردير» وأهل الجامع فاجتمعوا في صبحها، وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات، وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء. وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت[1]، وبلغ الأمراءَ ذلك؛ فأرسلوا إلى «يوسف بك»؛ فأطلق المسجونين، وأرسل إبراهيمُ بك من طرفه (إبراهيمَ: أغا بيت المال) فلم يأخذ جوابًا، وحضر الأغا إلى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان وأمر بفتح الحوانيت، فبلغ مجاوري المغاربة ذلك؛ فذهب إليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصي والمساوق... [2]».

ويظهر من هذا النص أن «الشيخ الدردير» وأهل الأزهر والعامة كانوا يعرفون آليات الإضراب والعصيان المدني باعتبارها من صور المقاومة الفعالة في التصدي لمظالم الحكام، وكانوا يدركون أثرها في الضغط على الحكومة من أجل حملها على الاستجابة لمطالب الجماهير، وكانوا يبدءون بأنفسهم؛ حيث كانوا يعطلون الدراسة

(1) وكانت هذه هي الإجراءات المتبعة عادة في عمليات العصيان المدني التي يقودها المشايخ؛ احتجاجًا على مظالم الأمراء.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 497).

وبعض الشعائر؛ لتنبيه العامة وحشدهم، أو لإعلان النفير العام، فكان الإضراب والعصيان المدني من وسائل الحشد الإعلامي إضافة إلى كونهما من وسائل الضغط الثوري.

ويلاحظ أنهم نفذوها بنجاح، وأجبروا الأمراء على الاستجابة لمطالبهم.

وفي الحوادث المشابهة التي استقرأتها لم أقف على حادثة واحدة فشلت فيها أعمال الإضراب والعصيان المدني، بل كلها انتهت إلى نجاح الضغط الشعبي في إيجاد أرضية صلبة للمفاوضات التي تسفر عادة عن الاستجابة لمطالب الجماهير، أو الوصول إلى حل وسط يرضي جميع الأطراف.

وذكر الجبرتي في حادثة أخرى من حوادث سنة 1200ه: «حضر من ناحية قبلي سفينة وبها تمر وسمن وخلافه، فأرسل «سليمان بك» الأغا وأخذ ما فيها جميعه وادعى أن له عند (أولاد وافي) مالًا منكسرًا، ولم يكن ذلك لأولاد وافي، وإنما هو لجماعة يتسببون فيه من مجاورى الصعايدة وغيرهم، فتعصب مجاورو الصعايدة وأبطلوا دروس المدرسين، وركب الشيخ الدردير والشيخ العروسي[1] والشيخ

(1) هو: علامة العلوم والمعارف، وروضة الآداب وظلها الوارف، جامع المزايا والمناقب، شهاب الفضل الثاقب، الإمام العلامة الشيخ أحمد بن موسى بن داود، أبو الصلاح العروسي الشافعي الأزهري، ولد سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف، وقدم الأزهر فسمع على الشيخ أحمد الملوي صحيح البخاري بالمشهد الحسيني، وعلى الشيخ

عبد الله الشبراوي الصحيح وتفسير البيضاوي والجلالين، وعلى الشمس الحفني الصحيح مع شرحه للقسطلاني ومختصر ابن أبي جمرة والشمائل وابن حجر على الأربعين والجامع الصغير، وتفقه على كل من الشبراوي والعزيزي والحفني والشيخ علي قايتباي الأطفيجي والشيخ حسن المدابغي والشيخ سابق والشيخ عيسى البراوي والشيخ عطية الأجهوري، وتلقى بقية الفنون عن الشيخ علي الصعيدي ولازمه السنين العديدة وكان معيدًا لدروسه، وسمع عليه الصحيح بجامع مرزة ببولاق، ولازم الشيخ الجبرتي الوالد وأخذ عنه وقرأ عليه في الرياضيات والجبر والمقابلة، وتلقن الذكر والطريقة عن السيد مصطفى البكري ولازمه كثيرًا، واجتمع بعد ذلك على ولي عصره الشيخ أحمد العريان فأحبه ولازمه واعتنى به الشيخ وزوجه إحدى بناته وبشره بأنه سيسود ويكون شيخ الجامع الأزهر، فظهر ذلك بعد وفاته بمدة لما توفي الشيخ أحمد الدمنهوري، واستمر شيخ الجامع على الإطلاق ورئيسهم بالاتفاق يدرس ويعيد ويملي ويفيد ولم يزل يراعي للحقير حق الصحبة القديمة والمحبة الأكيدة، وكان رقيق الطباع مليح الأوضاع لطيفًا مهذبًا، إذا لقيته لقيت من لطفه ما ينعش ويسر، ولم تزل كئوس فضله على الطلبة مجلوة حتى ورد موارد الموت ودعاه الله – تعالى – بجوار الجنان، وتلقاه جدثه بروح رحمة ورضوان، وذلك في حادي عشرين شعبان سنة 1208، وصلي عليه بالأزهر في مشهد حافل، ودفن بمدفن صهره الشيخ العريان، تغمده الله بالرحمة والرضوان، ومن تآليفه: شرح على نظم التنوير في إسقاط التدبير للشيخ الملوي، وحاشية على الملوي على السمرقندية وغير ذلك، وخلَّف أولاده الأربعة، كلهم فضلاء أذكياء نبلاء، أحدهم الذي تعين بالتدريس في محله بالأزهر العلامة اللوذعي والفهامة الألمعي شمس الدين السيد محمد، وأخوه النبيه الفاضل المتقن شهاب الدين السيد أحمد، وأخوه الذكي اللبيب والفهيم النجيب السيد عبد الرحمن، والنبيه الصالح والمفرد الناجح السيد مصطفى. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 164).

محمد المصيلحي[1] وآخرون، وذهبوا إلى بيت «إبراهيم بك» وتكلموا معه بحضرة «سليمان بك» كلامًا كثيرًا مفحمًا. فاحتج «سليمان بك» بأن ذلك متاع (أولاد وافي) وأنا أخذته بقيمته من أصل مالي عندهم..

(1) هو: الشيخ الإمام العلامة المتفنن المتقن المعمر الضرير الشيخ: محمد المصيلحي الشافعي، أجد العلماء، أخذ عن شيوخ الوقت، وأدرك الشيخ محمد شنن المالكي وأخذ عنه، وأجازه الشيخ مصطفى العزيزي والشيخ عبد ربه الديوي والشيخ أحمد الملوي والحفني والدفري والشيخ علي قايتباي والشيخ حسن المدابغي، وناضل ودرّس وأفاد، وانتفع عليه الطلبة، ولما مات الشيخ أحمد الدمنهوري وانقرض أشياخ الطبقة الأولى نوه بذكره واشتهر صيته وحف به تلامذته وغيرهم، ونصبوه شبكة لصيدهم وآلة لاقتناصهم وأخذوه إلى بيوت الأمراء في حاجاتهم، وكان يرى أحقيته في الرياسة؛ لسنه وأقدميته، ولما مات الشيخ أحمد الدمنهوري وتقدم الشيخ أحمد العروسي في مشيخة الأزهر كان المترجَم غائبًا في الحج، فلما رجع وكان الأمر قد تم للعروسي أخذته حمية المعاصرة، وأكثرها من إغراء من حوله، فيحركونه للمناقضة والمناكدة، حتى إنه تعدى على تدريس الصلاحية بجوار مقام الإمام الشافعي - المشروطة لشيخ الأزهر بعد صلاة الجمعة - فلم ينازعه الشيخ أحمد العروسي وتركها له؛ حسمًا للشر وخوفًا من ثوران الفتن، والتزم له الإغضاء والمسامحة في غالب الأطوار، ولم يُظهر الالتفات لما يعانونه أصلًا حتى غلب عليهم بحلمه وحسن مسايرته، حتى إنه لما توفي المترجَم ورجع إليه تدريس الصلاحية لم يباشر التصدر في الوظيفة؛ بل قرر فيها تلميذه العلامة الشيخ مصطفى الصاوي وأجلسه وحضر افتتاحه فيها، وذلك من حسن الرأي وجودة السياسة. توفي الشيخ محمد المصيلحي ثاني عشر شوال من سنة 1201هـ، وصلي عليه بالأزهر في مشهد حافل، ودفن بالمجاورين. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 35).

فقالوا: هذا لم يكن لهم وإنما هؤلاء رُبَّابُه[1] ناس فقراء، فإن كان لك عند أولاد وافي شيء فخذه منهم، فرد بعضه وذهب بعضه[2]».

وذكر في حوادث نفس السنة واقعة أخرى تظهر جرأة الشيخ في التصدي لمظالم الحكام، وذلك أنه «اجتمع الناس بطندتا[3] لعمل مولد سيدى أحمد البدوى المعتاد المعروف بمولد الشرنبابلية، وحضر كاشف الغربية والمنوفية على جاري العادة وكاشف الغربية من طرف «إبراهيم بك» الوالي -المولى أمير الحاج- فحصل منه عسف[4] وجعل على كل جمل يباع في سوق المولد نصف ريال فرانسة فأغار أعوان الكاشف على بعض الأشراف وأخذوا جمالهم - وكان ذلك في آخر أيام المولد - فذهبوا إلى الشيخ الدردير - وكان هناك بقصد الزيارة - وشكوا إليه ما حل بهم؛ فأمر الشيخ بعض أتباعه بالذهاب إليه فامتنع الجماعة من مخاطبة ذلك الكاشف فركب الشيخ بنفسه وتبعه جماعة كثيرة من العامة. فلما وصل إلى خيمة كتخدا الكاشف دعاه فحضر إليه والشيخ راكب على بغلته فكلمه ووبخه وقال له: (أنتم ما تخافون من الله!).

ففي أثناء كلام الشيخ لكتخدا الكاشف هجم على الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبوت فلما عاين خدامه ضرب سيدهم

(1) أي: أصحابه.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 610).

(3) يعني مدينة (طنطا).

(4) أي: ظلم.

هجموا على العامة بنبابيتهم وعصيهم وقبضوا على السيد أحمد الصافي - تابع الشيخ[1]- وضربوه عدة نبابيت. وهاجت الناس على بعضهم ووقع النهب في الخيم وفي البلد ونهبت عدة دكاكين وأسرع الشيخ في الرجوع إلى محله، وراق الحال بعد ذلك وركب كاشف المنوفية -وهو من جماعة إبراهيم بك الكبير- وحضر إلى كاشف الغربية وأخذه وحضر به إلى الشيخ، وأخذوا بخاطره وصالحوه ونادوا بالأمان. وانفض المولد، ورجع الناس إلى أوطانهم، وكذلك الشيخ الدردير، فلما استقر بمنزله حضر إليه إبراهيم بك الوالي وأخذ بخاطره أيضًا، وكذلك إبراهيم بك الكبير وكتخدا الجاويشية[2].«

النموذج الثالث- السيد عمر مكرم:

لعل التصعيد الشعبي التلقائي للسيد عمر مكرم - في الحقبة التي شهدت قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر- من خير الأمثلة على أثر المعيار الموضوعي في التصعيد الجماهيري لقيادات المقاومة الحضارية، فالسيد عمر مكرم اشتهر بتوليه نقابة الأشراف، وتولى نظارة بعض الأوقاف، لكنه كان معدودًا في جملة المشايخ، ومع هذا فقد كان عاديًّا في مستواه العلمي، ولم يعرف له تفوق على أقرانه في المستوى العلمي، بل لم يشتهر بالتدريس والتصنيف، ومواهبه الشخصية كانت جيدة لكنها لم تكن فائقة إذا ما قيست بأنماط القادة التاريخيين العظماء

(1) أي: تابع الشيخ الدردير.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 612).

الذين غيروا مجرى التاريخ، ومع هذا فقد اجتمعت عليه قلوب العامة في مصر، وأسلمت إليه زمامها، وتقدم - في القيادة والقدرة على تحريك الجماهير- على من يفوقه علمًا وسنًّا من المشايخ، وصار هو أبرز شخصية في دائرة أهل الحل والعقد إلى أن انقلب عليه (محمد علي) بمعاونة من حقد عليه من المشايخ.

إذن؛ فما هو المعيار الذي رجح تصعيد السيد عمر مكرم؟

الإجابة هي ما ذكره المشايخ في قولهم: «الأمير إنما يصير أميرًا بالإعطاء لا بالأخذ»، فهذه كلمة السر في تفسير الصعود -الملفت للنظر- في حالة الشيخ عمر مكرم، فالسيد عمر مكرم كان شخصية صاحبة عطاء متشعب الجوانب؛ حيث بذل نفسه لخدمة دينه وأمته وآحاد الجماهير دون أن ينتظر المقابل؛ فاجتمعت عليه قلوب الناس، وجعلوه محلًّا لثقتهم، وأمينًا على تقرير مصيرهم في أوقات النكبات الكبرى التي نزلت بالأمة في عصر السيد عمر مكرم.

ومن أهم مظاهر العطاء في مسيرة السيد عمر مكرم: مواقف المقاومة الحضارية لمظالم الحكام المسلمين وجرائم المحتلين الكافرين.

وقد لخص الجبرتي جوانب العطاء -التي صعد بها السيد عمر مكرم إلى أرفع المنازل- فقال في بيان حزن العامة والخاصة على رحيل السيد عمر مكرم منفيًّا إلى دمياط: «واستهل شهر رجب بيوم الأحد سنة 1224.. فيه اجتمع المودعون للسيد عمر... وشيعه الكثير

من المتعممين وغيرهم، وهم يتباكون حوله حزنًا على فراقه، وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر؛ لأنه كان ركنًا وملجأً ومقصدًا للناس، ولتعصبه على نصرة الحق».

وقال في التأسف على حال المشايخ الذين وافقوا (محمد علي) على عزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط: «والحامل لهم على ذلك كله: الحظوظ النفسانية والحسد، مع أن السيد عمر كان ظلًّا ظليلًا عليهم وعلى أهل البلدة، ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم، ولم تقم بعد خروجه من مصر راية، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض[1]».

إذن؛ فالسيد عمر مكرم، لم يكن رجل مواهب بقدر ما كان رجل مواقف خالدة هي التي أهلته للتصعيد القيادي.

ومن هذا القبيل «الشيخ سليمان الجوسقي» شيخ طائفة العميان، والذي أعدمه «نابليون» عقابًا له على دوره القيادي في ثورة القاهرة الأولى، فالشيخ الجوسقي كان شيخًا لطائفة العميان، وقد أحسن تنظيم العميان، وتفانى في خدمتهم ورعايتهم واستخلاص حقوقهم، وتفنن في وسائل توفير الموارد لكفايتهم حتى صار للعميان في عهده صولة بحيث يُخشى منهم، ولم يقتصر عطاء الشيخ على طائفة العميان، بل كان يقرض أكابر البلاد الأموال الكثيرة.

---

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 275).

قال الجبرتي في وفيات سنة 1213هـ: «ومات العمدة الشهير الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان بزاويتهم المعروفة الآن بالشنواني، تولى شيخًا على العميان المذكورين بعد وفاة الشيخ الشبراوي وسار فيهم بشهامة وصرامة وجبروت، وجمع بجاههم أموالًا عظيمة وعقارات، فكان يشتري غلال المستحقين المعطلة بالأبعاد بدون الطفيف ويخرج كشوفاتها وتحاويلها على الملتزمين ويطالبهم بها كيلًا وعينًا، ومن عصى عليه؛ أرسل إليه الجيوش الكثيرة من العميان فلا يجد بدًّا من الدفع، وإن كانت غلاله معطلة؛ صالَحَهُ بما أحب من الثمن، وله أعوان يرسلهم إلى الملتزمين بالجهة القبلية يأتون إليه بالسفن المشحونة بالغلال والمعاوضات من السمن والعسل والسكر والزيت وغير ذلك ويبيعها في سني الغلوات بالسواحل والرقع بأقصى القيمة ويطحن منها على طواحينه دقيقًا ويبيع خلاصته في البطط بحارة اليهود ويعجن نخالته خبزًا لفقراء العميان يتقوتون به... ولما انقضت تلك السنون وأهلها صار المترجم من أعيان الصدور المشار إليهم في المجالس، تُخشى سطوته وتسمع كلمته، ويقال: قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا وصار يلبس الملابس والفراوي ويركب البغال، وأتباعُه محدقة به، وتزوج الكثير من النساء الغنيات الجميلات واشترى السراري البيض والحبش والسود، وكان يُقرِض الأكابر المقادير الكثيرة من المال؛ ليكون له عليهم الفضل والمنة، ولم يزل حتى حمله التفاخر في زمن الفرنسيس على توليه كبر إثارة الفتنة التي أصابته وغيره وقتل فيمن قتل بالقلعة[1]».

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 279).

ويظهر من هذا النص أن «الشيخ الجوسقي» كان اقتصاديًّا بارعًا في تدبير أمور طائفته، وأحسن استخلاص حقوقهم بشتى الطرق.

المعيار الذاتي:

يظهر المعيار الذاتي بجلاء عند التأمل في سيرة بعض المشايخ القادة الذين أعدمهم «نابليون» من أعضاء مجلس قيادة ثورة القاهرة الأولى.

فالصفة المشتركة فيهم جميعًا هي (الجماهيرية) بكل ما يحيط بهذه الصفة من مواهب وصفات مكتسبة وغوغائية في بعض الأحيان، المهم أنهم كانوا طرازًا خاصًّا من المشايخ يستطيعون مخاطبة الجماهير وتحريكها وتنظيمها[1].

قال الجبرتي في ترجمة أحد المشايخ الذين أعدمهم نابليون: «ومات العلامة الفاضل الفقيه الشيخ أحمد بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهري... يأتي إليه الفلاحون - من جيزة بلادهم - بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم، فيقضي بينهم ويكتب لهم الفتاوى في الدعاوى التي يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضي، وربما زجر المعاند منهم وضربه وشتمه، ويستمعون لقوله ويمتثلون لأحكامه، وربما أتوه بهدايا ودراهم، واشتهر ذكره، وكان جسيمًا عظيم اللحية فصيح اللسان، ولم يزل على حالته حتى اتهم في فتنة الفرنسيس المتقدمة ومات مع من قتل بيد الفرنساوية بالقلعة ولم يعلم له قبر[2]».

---

(1) ينظر: محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص: 223.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 277).

ولعل هذا المنحى في تصعيد القيادات الشعبية هو الذي أثمر تصعيد سيف الدين قطز لإمارة مصر بعد مقتل شجرة الدر وكبار قادة المماليك إبان اجتياح التتار العالم الإسلامي واقترابهم من مصر.

وهو نفس المعيار الذي على أساسه تم تصعيد محمد علي للقيادة بعد عزل «خورشيد باشا» على إثر ثورة شعبية تزعمها السيد عمر مكرم سنة 1805هـ.

فمحمد علي كان قائد قوة ألبانية تابعة للسلطان العثماني، وهذه القوة كانت كيانًا دخيلًا ولم تكن جزءًا من الشعب المصري، ومن ثم فلم تعرف لمحمد علي إسهامات كبيرة - في خدمة المجتمع المصري - بحيث تكسبه شهرة واسعة النطاق وترجح تصعيده للقيادة، وإنما ترجح تصعيده بسبب كونه رجلًا ذكيًّا واسع المواهب، وقد مارس اللعبة بذكاء حين أخذ يتقرب إلى السيد عمر مكرم وكبار المشايخ، ويظهر لهم الاحترام والإكبار واحترام الشرع الشريف، فاستطاع أن يلفت نظر السيد عمر والمشايخ لمواهبه الذاتية الواسعة، وأن يكسب ثقتهم في شخصه؛ بما أظهره من حب العلم والعلماء واحترام الشرع الحنيف.

ثالثًا: سمات المقاومة الجماهيرية (الشعبية):

تتسم هبّات العامة في المقاومة بالصدق والاندفاع في نصرة الحق - بتفانٍ - دون مبالاة بعواقب هذا الاندفاع.

بل إن العامة أظهروا من الحرص على التضحية ما أحرج القيادات في غير مناسبة من مناسبات المقاومة والجهاد، وذلك كما ظهر في ثورة القاهرة الثانية؛ حيث اعتبر العامة محاولات الصلح مع ساري عسكر الفرنسيين؛ خيانة، وحملهم هذا على الإساءة للمشايخ الذين عرضوا الصلح، ثم اندفع العامة في المقاومة مظهرين استبسالًا يعز نظيره، غير مبالين بما يحل بهم من أصناف التنكيل والأذى جراء صمودهم، وكان هذا الاستبسال في المقاومة من أسباب امتداد شعلة الثورة لأكثر من شهر[1].

والعجيب أن فلول المماليك الذين فروا من (كليبر) إلى داخل القاهرة تحولوا إلى عبء على الثورة وعنصر تخاذل يسعى طيلة الوقت للتسليم والمفاوضة، أو يقوم بأعمال التخريب، ولكن مساعيهم فشلت تحت ضغط الشعب الثائر[2].

غير أن بعض المماليك أبت نفوسهم الكريمة أن تتلطخ بعار الخيانة أو خطيئة الاستكانة؛ فانحازوا إلى الثورة وأبلوا بلاءً حسنًا في ميدان المقاومة، ومن هؤلاء: (حسن بك الجداوي) الذي أظهر بطولات عظيمة.

وحسن بك الجداوي كان من مماليك علي بك الكبير، وولاه إمارة جدة[3]، ولهذا لقب بالجداوي، وكان شجاعًا مقدامًا يُضرب به

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 337).
(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 276.
(3) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 398).

obeikandl.com

المثل في ذلك[1]، وكان من رموز الجهاد والمقاومة في عهد الحملة الفرنسية، ورفض عرضًا من الفرنسيين بأن يكون في أمان من ناحيتهم ويقرونه على ما تحت يده من البلاد بشرط أن يكف عن مقاتلتهم، لكنه رفض هذا العرض المغري، وأصر على الجهاد والمقاومة؛ فقام الفرنسيون بالتضييق على نسائه[2].

وكان حسن الجداوي يمتاز بالتحرك الواسع في أنحاء القطر المصري ليحض الناس على الجهاد، وينحاز إلى المجاهدين لنصرتهم على قدر استطاعته.

قال الجبرتي: «وحسن بك الجداوي تترس بناحية الرويعي، وربما فارق متراسَه في بعض الليالي؛ لنصرة جهة أخرى[3]».

وقال: «وفي كل ساعة تهجم العساكر الفرنساوية على جهة من الجهات ويحاربون الذين بها ويملكون منهم بعض المتاريس فيصيحون على بعضهم بالمناداة يتسامع الناس ويصرخون على بعضهم البعض ويقولون: (عليكم بالجهة الفلانية، الحقوا إخوانكم المسلمين) فيرمحون إلى تلك الخطة والمتاريس حتى يجلوهم عنها وينتقلون إلى

(1) يقول الجبرتي في ترجمة الأمير سليم الكاشف: «وكان المذكور ذا بأس وشدة وإقدام وشجاعة وتهور، مشابهًا لحسن بك الجداوي في هذه الفعال» تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 459).

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 291).

(3) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 327).

غيرها فيفعلون كذلك، وكان المتحمل لغالب هذه المدافعات حسن بك الجداوي؛ فإنه كان عندما يبلغه زحف الفرنساوية على جهة من الجهات؛ يبادر هو ومن معه للذهاب لنصرة تلك الجهة، ورأى الناس من إقدامه وشجاعته وصبره على مجالدة العدو - ليلًا ونهارًا - ما ينبئ عن فضل نفس وقوة قلب وسمو همة، وقَلَّ أن وقع حرب في جهة من الجهات إلا وهو مدير رحاها ورئيس كماتها، هذا والآغا والوالي يكرران المناداة، وكذلك المشايخ والفقهاء والسيد أحمد المحروقي والسيد عمر النقيب[1] يمرون كل وقت ويأمرون الناس بالقتال ويحرضونهم على الجهاد وكذلك بعض العثمانية[2]».

حراك العامة وحراك النخبة:

من الملاحظات العجيبة: أن الحراك الذي تنظمه العامة وقياداتها الشعبية عادة ما يكون أنجح من حراك الجيوش المنهارة تبعًا لانهيار القيادة الرسمية في أوقات الاجتياحات، وقد ظهر هذا في غير واقعة من وقائع تاريخنا، منها نجاح المقاومة الشعبية المسلحة في مدينة السويس بعد انهيار القوات النظامية بفعل ثغرة الدفرسوار، ومنها ما نحن بصدده من نجاح عامة الشعب في الصمود المتكرر أمام قوات الحملة الفرنسية - بعد انهيار القيادة الرسمية - وتكبيدها خسائر فادحة، ورفع ضريبة بقائها في مصر، الأمر الذي أسهم في إقناع القوات

(1) يعني: عمر مكرم؛ لأنه كان نقيبًا للأشراف.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 334).

الفرنسية بعدم جدوى البقاء في مصر، مما حملهم على قبول الاتفاق على الجلاء.

يقول الرافعي في وصف جبن المماليك أثناء مجزرة أبنود: «لبثوا يشاهدون هذه المجزرة بعيدًا... ذلك كان شأنهم في كل المعارك التي اشتد فيها القتال، فكانوا يضنون بأرواحهم ويعرضون الأهالي فداء وضحية».

بينما استبسل الأهالي في الدفاع عن مدينتهم وكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة[1].

يقول المسيو مارتان: «لم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا واتبعوها، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية لهذه المقاومة[2]».

ويشهد (هيرولد) للعامة المصريين بأنهم بذلوا أقصى جهدهم في حدود المقاومة المسموح لهم بها في ظل احتكار[3] المماليك لمهنة السلاح[4].

---

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 195.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 171.

(3) إذن؛ فالتاريخ يثبت أن حق الدولة في احتكار حمل السلاح يقابله واجب الكفاءة في تأمين الوطن والمواطن ضد الأخطار الداخلية والخارجية، وإلا عُدَّ نزع السلاح من المواطن مع ضعف المنظومة الأمنية؛ ضربًا من ضروب العبث والتلاعب بأمن الناس.

(4) ودخلت الخيل الأزهر ص 147.

«وقد اتخذ المصريون شعارهم ذلك المبدأ المشهور الذي أعلنته فرنسا، وهو أن مقاومة الاضطهاد هي أقدس واجبات الشعب[1]».

هل المقاومة الشعبية فوضوية؟

لا يمكن لعاقل أن ينفي أهمية المقاومة الجماهيرية في صد الهجمات، وحفظ كيان الأمة، لكن قد يؤخذ على المقاومة الجماهيرية أنها مقاومة غير منظمة، تفتقر إلى التخطيط الإستيراتيجي، ويختل لديها ميزان الأولويات، وتندفع في حركات عفوية فوضوية غير محددة الأهداف بدقة، ولا تحكمها قيادة تضبط لها المسار على نحو يكفل لها النجاح في تحقيق الأهداف، ويستشهد منتقدو المسلك الثوري للمقاومة الشعبية بوقائع تاريخية حصلت فيها أعمال عدوانية في إطار المقاومة الشعبية، وكانت هذه التهمة من نصيب الثورات الشعبية ضد الحملة الفرنسية.

وكان للجبرتي استياء من غوغائية الثورة ضد الفرنسيين، وانتقادات لاذعة للاعتداءات التي صاحبت أعمال الثورة والمقاومة، ومن ذلك أنه قال عن ثورة القاهرة الأولى وما تقدمها من فرض الضرائب الباهظة: «وفي يوم السبت عاشر جمادى الأولى عملوا الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة والأوسط ستة والأدنى ثلاثة وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى وأما الوكائل والخانات والحمامات والمَعاصر... والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين... وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم... ولما أشيع

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 171.

ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الأمور، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب... وحضر السيد بدر وصَحِبَتْهُ حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم، ويقولون بصياح في الكلام: (نصر الله دين الإسلام) فذهبوا إلى بيت قاضي العسكر وتجمعوا، وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر، فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حُجَّابه، فرجموه بالحجارة والطوب، وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب...».

وقال في وصف ما جرى على الناس في ثورة القاهرة الثانية: «وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب، ولم يكن لأحد في حساب، ولا يمكن الوقوف على كلياته فضلًا عن جزئياته، منها عدم النوم ليلًا ونهارًا وعدم الطمأنينة وغلو الأقوات وفقد الكثير منها... وتوقع الهلاك كل لحظة والتكليف بما لا يطاق ومغالبة الجهلاء على العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء وتهور العامة ولغط الحرافيش».

وممن انتقدهم الجبرتي وشنع عليهم: الرجل المغربي الذي كان يحرض العامة على الثورة وعدم قبول الصلح في ثورة القاهرة الثانية، وسيأتي تحقيق تاريخي عن حقيقة هذا الرجل واتهامات الجبرتي له.

فيظهر من مسلك الجبرتي في وصف أعمال الثورة والمقاومة أنه يرى فيها بعض التهور[1] والغوغائية وعدم التبصر بالعواقب، وانسياق العامة بلا قائد يقودهم ولا رئيس يسوسهم، لكن الجبرتي لم يكن ضد مقاومة المحتل من حيث المبدأ[2]، وإنما كان ينتقد الاندفاع العشوائي غير المنظم؛ ومن ثم فلا يصح الاستناد إلى كلام الجبرتي لسحب الحكم بالفوضوية على أعمال الثورة والمقاومة.

وحتى لو سلمنا بوصف الفوضوية، فهل كان ثمة خيار آخر (متحضر) أمام الجماهير التي سقطت بلادها في يد المحتل الكافر، وسقطت قيادتها السياسية، وانهارت قواتها العسكرية، ووجدت نفسها فجأة في مواجهة الطوفان بلا حامٍ يحميها؟!

وهل كانت هذه الجماهير تملك أن تمتنع عن إيقاد شعلة الثورة والمقاومة؛ خوفًا من الفوضوية ووقوع بعض التجاوزات؟

وعلى فرض أن الثورة والمقاومة تمكنت من تنظيم نفسها تحت قيادة واعية – تحسن التبصر بعواقب الأمور– فهل كانت هذه القيادة تملك أن تضبط الأمور وتمنع التجاوزات؟

وهل في التاريخ جهاد أو ثورة أو مقاومة بلا تجاوزات؟

(1) وتقدم بيان أن الجبرتي كان متحفظًا على المسلك الثوري – بوجه عام – نظرًا لفداحة الخسائر البشرية والمادية المترتبة عليه.

(2) بدليل إطلاق وصف الشهداء على المشايخ الذين قادوا ثورات المصريين ضد القوات الفرنسية وأعدمهم الفرنسيون.

على أن الجبرتي يمكن أن يُناقَش في مسألة اندفاع الثورة بلا قيادة؛ لأن أعمال الثورة والمقاومة كانت تستند إلى تنظيم سري تشكل بعد استيلاء الفرنسيين على القاهرة، وقد تحدثنا بالتفصيل عن هذا التنظيم بما يغني عن التكرار.

إذن؛ فتعميم الحكم بالفوضوية على أعمال المقاومة أمر يجافي مسلك الإنصاف؛ لأن المقاومة - في المحصلة النهائية - عمل بشري غير معصوم، وهذا العمل يجري في ظروف خاصة تزيغ فيها الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر، ويضيق الخناق على المقاومين، ويظهر أعضاء الطابور الخامس على حقيقتهم من خلال التعاون مع المحتل، وفي ظل هذه الظروف العصيبة لا بد أن تقع أعمال انتقامية، لكنها لا تمثل جوهر المقاومة الحضارية، وإنما هي أمر عرضي يمثل حالة استثنائية، والاستثناء لا يتوسع فيه ولا يقاس عليه كما تنص القاعدة الأصولية.

إذن؛ فهذه الاعتداءات العارضة لا تمس جوهر المقاومة الشعبية ولا تنفي عنها صفة الحضارية.

رابعًا: اتساع نطاق المقاومة الجماهيرية في أوقات السقوط:

في أوقات الهجمات الكبرى التي تزلزل الأمة يتسع ميدان المقاومة ليشمل القاعدة الشعبية العريضة التي يتأسس عليها بنيان الأمة.

فمثلًا كان الرفض المصري للوجود الفرنسي يشكل حركة

وطنية عامة تشمل الأمة بكل طوائفها وطبقاتها؛ فالزعر[1] والحرافيش والغوغاء يقاتلون في شوارع القاهرة بكل بسالة..

والفلاحون يشنون أول حرب فلاحين في تاريخ الشرق، حتى إن المؤرخ الصهيوني (ناداف صافران) يقر بأن مصر شهدت ثورة فلاحين في سنة 1800م ضد المحتل الفرنسي[2].

أما المساتير والأغنياء فلم يكونوا أقل استعدادًا للبذل.

يقول المسيو (ريبو) - أحد كتاب الحملة الفرنسية -: «كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق النار على الفلاحين، لكن الثورة كانت كحية ذات مئة رأس: كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى بلد آخر[3]».

وفي وصف المشاركة الشعبية الواسعة في ثورة القاهرة الثانية يقول الجبرتي: «وصار جميع أهل مصر إما بالأزقة ليلًا ونهارًا، وهو من لا يمكنه القتال، وإما بالأطراف وراء المتاريس، وهو من عنده إقدام وتمكن من الحرب، ولم ينم أحد ببيته سوى الضعيف والجبان والخائف و»ناصف باشا»[4] و»إبراهيم بك» وجماعاتهم، وأنشأ «عثمان كتخدا» معملاً

(1) الفتوات في الحارات الشعبية.
(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 199.
(3) ودخلت الخيل الأزهر ص 171.
(4) من أتباع مراد بك.

للبارود... وأحضر القندفجية والعربجية والحدادين والسباكين لإنشاء مدافع وبنبات وإصلاح المدافع التي وجدوها في بعض البيوت وعمل العجل والعربات... وغير ذلك من المهمات الجزئية... وجمعوا إلى ذلك الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك[1]... فكانوا كلما أدخلوا مدفعًا أدخلوه بجمع عظيم من الأوباش والحرافيش والأطفال، ولهم صياح ونباح وتجاوب بكلمات؛ مثل قولهم: (الله ينصر السلطان، ويهلك فرط الرمان[2]) وغير ذلك[3]».

ويحدثنا التاريخ أن ميدان المقاومة اتسع ليضم حتى الفئاتِ التي طالما دأبت على الفوضوية وقلة الاكتراث بالنظام الاجتماعي السائد،

---

(1) ويرى الأستاذ محمد جلال كشك أن هذه الأعمال المبهرة كانت نواة يمكن البناء عليها لإحداث ثورة صناعية.
وعلى كلٍّ فالضرورة التاريخية عادة ما تسفر عن قدرة العقل المصري على الإبداع وتحقيق الاكتفاء الذاتي في شتى الميادين متى وجدت الإرادة لذلك، لكن المشكلة في غياب القرار الحاسم الإيجابي، وترك الأمور للصدفة وردود الأفعال.
كما تثبت الضرورة التاريخية حقيقة أخرى مهمة بهذا الصدد هي: أن الاستقلال الصناعي عادة ما يكون مصاحبًا لحركة الأمة في الاستقلال السياسي والعسكري، والعكس بالعكس، ولعل هذا يفسر لنا كيف أن النهضة الصناعية لم تتحقق في الأمة حتى الآن!

(2) لقب أطلقه المصريون على (برطلمين) الرومي أحد أعوان الحملة الفرنسية، وكان من نصارى الروم الذين يعيشون بمصر وقت دخول الحملة.

(3) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 326).

فقد كان للعُربان - مثلًا - دور مهم في مقاومة الحملة الفرنسية، وملاحقة جنودها في عدة جبهات، حتى تمكنوا من أسر بعضهم.

ونظرًا للخطر الذي كان يشكله العُربان على جنود الحملة؛ قُدم اقتراحٌ بتخصيص سلاح الهجانة -الذي أنشأه قائد الجيش الفرنسي في مصر- لمقاومة تلك القبائل التي تهدد أمنهم.

وقام الفرنسيون بقتل بعض مشايخ العربان، مثل «الشيخ الشواربي» شيخ قليوب، وثلاثة من مشايخ العربان في الشرقية؛ بحجة أنهم اطلعوا على مكاتبات لهم فيها تحريض على الحملة، كما أنهم وجدوا كثيرًا من الأسلحة والأمتعة التي نهبت منهم (من الفرنسيين) لدى عربان (العبابدة)، وقتل هؤلاء العربان بطرق بشعة.

وبلغ من كراهية بونابرت للعربان وموقفهم من الحملة أنه أذاع في منشور عقب عودته من الشام: أن من أسباب عودته رغبتَه في تأديب العربان من قبائل (بلى) و(العبابدة) وغيرهم الذين يناصرون المماليك ويحركون الفتن في البلاد في غيابه، ويعيثون في البلاد فسادًا ونهبًا[1].

ويقول الرافعي: «والواقع أن من يتتبع سلسلة المقاومات التي لقيها الجيش الفرنسي من المصريين؛ يعجب من شدة مقاومة الأمة -وقتئذ- للاحتلال الفرنسي، واستمرار هذه المقاومة، وانفساح مداها في أنحاء القطر

(1) د. إيمان محمد عبد المنعم عامر، العُربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص 30، الهيئة العامة للكتاب، فرع الصحافة 1997.

المصري، حتى كأن ثورة عامة قد اندلعت في وجه الفرنسيين... ولو قلبت صحائف الحركة القومية المصرية - في خلال المئة سنة الأخيرة - لما وجدت لهذه المقاومة شبهًا سوى الحركة العامة التي ظهرت سنة 1919م»[1].

ولكن الرافعي لم يقدم تفسيرًا لهذه الظاهرة العجيبة، وهي قوة واتساع المقاومة المصرية للحملة الفرنسية، ثم اختفاء هذه الروح مئة عام؛ حيث لم يواجه الإنجليز مثل هذه المقاومة بعد الاحتلال!

إن (محمد عبده) يفسر هذه الظاهرة بنسبة ذلك إلى استبداد محمد علي، وقتله - هو وأولاده - لروح الأمة.

لقد وضع محمد علي مصر في حالة القابلية للاستعمار من خلال عملية التغريب التي نجح فيها واستحق ثناء المدرسة الاستعمارية في كتابة التاريخ.

والفرق بين الرافعي والمدرسة الاستعمارية: أن الرافعي يريد أن يأكل الحلوى ويحتفظ بها، فهو يريد التغريب ويريد بقاء الروح الوطنية، بينما المدرسة الاستعمارية سرورها مضاعف؛ لأن التغريب يتم والروح الوطنية المقاومة للوجود الغربي تضعف في نفس الوقت.

كانت مصر لا تزال بكرًا لم تلوثها أمراض التحديث الكاذب؛ لذا هب الشعب المصري في أروع مقاومة عرفها تاريخ القرن التاسع عشر للغزو الاستعماري الغربي[2].

---

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 173.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 174.

وكانت الأمة على حق عندما رأت أن فرصتها الوحيدة في دخول عصر الحضارة الحديثة كانت تبدأ بنجاح هذا البلد في منع استقرار حضارة المحتل في البلاد، فالبلد الشرقي الوحيد الذي حقق التحديث دون أن يفقد هويته هو[1] الذي نجا من الاحتلال الغربي، والبلاد التي لا زالت تبحث عن طريقها للحضارة والتصنيع والتحديث هي البلاد التي تحكَّم الغربُ في مصيرها في قرون الاستعمار: من الفلبين إلى مراكش[2].

المقاومة الحضارية الجماهيرية لعمليات التذويب الحضاري:

من أهم صور المقاومة الحضارية ما أظهره الحراك الجماهيري من عمليات المقاومة الشريفة لمحاولات التذويب الحضاري التي تعرضت لها الأمة في أوقات السقوط.

وقد حكى الجبرتي حكايات تثبت هذه المقاومة الشعبية لعمليات التذويب الحضاري، منها ما حكاه في حوادث شهر ربيع الأول سنة 1213، فقال: «وفيه طلب صاري عسكر بونابارته المشايخَ، فلما استقروا عنده نهض بونابارته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسان ثلاثة عروض: أبيض وأحمر وكحلي[3] فوضع منها واحدًا على كتف «الشيخ الشرقاوي»، فرمى به إلى الأرض[4]... وتغير

(1) يعني اليابان.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 174.

(3) ألوان علم الثورة الفرنسية.

(4) وهذا السلوك الغاضب ينفي عن الشيخ الشرقاوي تهمة العمالة للمحتل بسبب

مزاجه... وانتقع لونه واحتد طبعه، فقال الترجمان: يا مشايخ، أنتم صرتم أحبابًا لصاري عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته؛ فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم، فقالوا له: لكن قدْرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين، فاغتاظ لذلك (يعني بونابرت) وتكلم بلسانه، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوي: إنه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك، فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك فقال: إن لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار في صدروكم، وهي العلامة التي يقال لها: الوردة، فقالوا: أمهلونا حتى نتروى في ذلك واتفقوا على اثني عشر يومًا.

وفي ذلك الوقت حضر «الشيخ السادات» باستدعاء فصادفهم منصرفين، فلما استقر به الجلوس بشَّ له وضاحكه صاري عسكر ولاطفه في القول الذي يعربه الترجمان، وأهدى له خاتم الماس وكلفه الحضور في الغد عنده وأحضر له جوكار أوثقه بفراجته (أي: عباءته) فسكت وسايره وقام وانصرف، فلما خرج من عنده رفعه. على أن ذلك لا يخل بالدين (تعليق من الجبرتي).

مشاركته في الديوان، ويرجح أن مشاركته كانت نابعة من اجتهاد في تقدير المصلحة العامة، فترجح عنده أن المشاركة في الديوان هي أهون الشرين، ومما يؤكد هذا المعنى أن الشيخ الشرقاوي بقي محتفظًا بمكانته بعد جلاء الحملة الفرنسية، مما يدل على تفهم العامة لاجتهاد الشيخ في تقدير المصلحة العامة، بينما سلك العامة مسالك أخرى في التعامل مع بعض أعضاء الديوان الذين غلَّبوا مصالحهم الشخصية، ولم يحتفظوا بكرامتهم في التعامل مع المحتل، مثل خليل البكري.

وفي ذلك اليوم نادى... على الناس بوضع العلامات المذكورة المعروفة بالوردة، وهي إشارة الطاعة والمحبة؛ فأنف غالب الناس من وضعها... وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين؛ إذ هو مكره، وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر، فوضعها، ثم في عصر ذلك اليوم نادوا بإبطالها من العامة وألزموا بعض الأعيان ومن يريد الدخول عندهم -لحاجة من الحاجات- بوضعها، فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم وذلك أيامًا قليلة، وحصل ما يأتي ذكره فتركت[1]».

فهذا النص يبين مدى إدراك العامة والخاصة لخطورة قبول التميز بشارة المحتل على الدين والهوية، وأن من قبِل هذا التميز قبِله عن إكراه واضطرار، وبادر برفعها في أول فرصة.

فشارة الثورة الفرنسية حين تعبر البحر المتوسط وتستولي على بلادنا تفقد مضمونها التحرري الذي يكون له قيمة ما دامت في مهدها الأوربي[2]، أما عندنا فلم تكن هذه الشارة تعني إلا الاستعمار الأوربي للكيان المادي للأمة، والتذويب الحضاري للكيان المعنوي لأمتنا، والاستلاب الأجنبي لهويتنا.

ومن ثم فإلقاؤها على الأرض هو رفض للتبعية، ومقاومة للانتماء للمحتل، واعتزاز بالذات الحضارية[3].

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 203).
(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 170.
(3) ودخلت الخيل الأزهر ص 170.

وكُتَّاب الحملة الفرنسية كانوا أصدق تعبيرًا عن شعور الشعب المصري وطبيعة العلاقة التي قامت بينه وبين المحتل؛ لأن تجميل التاريخ مرحلة تالية لتزويره...

قال الدكتور (ديجنت) -كبير أطباء الجيش الفرنسي- في مذكراته: «لقد تكلموا كثيرًا - حتى في أوربا - عن حفلات أول فنديمير (عيد الجمهورية الفرنسية) وتأثيرها في نفوس المصريين، على أن كاتب هذه المذكرات يؤكد أنها لم يكن لها أثر ما في سكان القاهرة»[1].

ومن هذا القبيل - في مقاومة التذويب الحضاري - سخرية العامة من النصب التذكاري الذي نصبه الفرنسيون بالقاهرة؛ ليكون رمزًا للثورة، لكن العامة في مصر لم تجد فيه إلا ما سجله نقولا الترك: «إن الفرنسيين كانوا يقولون: إن هذه شجرة الحرية، أما أهالي مصر فكانوا يقولون: إن هذه إشارة (الخازوق) الذي أدخلوه فينا، واستيلائهم على مملكتنا. واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر، وحينما رفعوه استبشرت أهل مصر وابتهجت بالفرح[2]».

وهذا النص يبين أن العامة كان لديهم من الوعي ما حصنهم من توهم أن الاحتلال الغربي يمكن أن يحرر الشعوب العربية والإسلامية، وأن (الكتلة الجماهيرية المقاوِمة) ربما كانت أوعى من بعض أفراد النخبة بحقيقة الأهداف الاستعمارية.

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 171.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 358.

وفي فرح العامة واستبشارهم بزوال رمز المحتل علامةٌ على نجاح المقاومة الجماهيرية لمحاولات زعزعة الهوية وإضعاف الانتماء.

وعمليات الردع الشعبي للمتعاونين مع المحتل – المتقدم ذكرها – تنبع عادة من إدراك الجماهير لخطورة الثقة بالمحتل على الكيان المادي والمعنوي للأمة، وهذا الإدراك يتجسد في أشكال متنوعة كلها تصب في خانة المقاومة الحضارية للأمة، وهذا ما شهد به الأعداء للجماهير المصرية التي رفضت الذوبان الحضاري، وقاومت كل الإغراءات التي تعرضت لها من أجل قبول هذا الذوبان.

ومن صور هذه المقاومة: الفتك بالعناصر التي ارتبطت بعلاقات مشينة مع جنود الحملة الفرنسية، وقد أشرنا من قبل إلى تأديب العامة للشيخ خليل البكري، وإعدام ابنته زينب، وهناك مثال آخر وهو المرأة التي تسمى (هوى) وقد نالت مصير زينب البكرية هي وجارية لها، قال الجبرتي في حوادث ربيع الأول سنة 1216ه: «وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه طُلبت ابنة الشيخ البكري – وكانت ممن تبرج مع الفرنسيس – وأحضروها ووالدها فسألوها عما كانت تفعله فقالت: (إني تبت من ذلك) فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: أقول: (إني بريء منها)؛ فكسروا رقبتها. وكذلك المرأة التي تسمى «هوى» التي كانت تزوجت نقولا القبطان ثم أقامت بالقلعة وهربت بمتاعها... فلما دخلت المسلمون وحضر زوجها مع من حضر... أمنها وطمأنها وأقامت معه أيامًا، فاستاذن الوزير في قتلها

فأذنه، فخنقها في ذلك اليوم أيضًا ومعها جاريتها البيضاء أم ولده. وقتلوا أيضًا امرأتين من أشباههن[1]».

كم كانت هذه المقاومة رائعة وخالدة! لأنها كانت رفض أمة سليمة العقيدة نقية الجوهر لم يتم -بعد- تغريبها ولا تدجينها؛ ولأنها كانت بقيادة النخبة الشرعية للمجتمع.

ولقد كانت بذور البعث الحضاري المنشود موجودة في طيات هذه المقاومة، وفي صفحات هذا الرفض للوجود الحضاري. ففي ثورة القاهرة الأولى ولدت التنظيمات الوطنية، وفي الثانية أوشكنا أن ندخل عصر الانقلاب الصناعي عندما صنع أجدادنا المدفع والبارود[2].

وفي معارك دمنهور والصعيد ولدت الوحدة العربية عندما اختلطت دماء المجاهدين من الحجاز وتونس بدماء المجاهدين المصريين، وبلغت هذه الوحدة ذروتها بالبطل الشهيد «سليمان الحلبي» الذي جاء من حلب ليثأر لمصر من «كليبر» السفاح[3].

---

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 486).

(2) هذه الاستنتاجات مما يحمد للأستاذ محمد جلال كشك في معالجته لحدث الحملة الفرنسية وطريقة تعاطي حركة المقاومة معه. ونستفيد من كشف هذه الحقائق: أن القفزات العظيمة في حياة الأمم عادة ما تكون ناجمة عن التفاعل مع التحديات الكبرى، فهذه التحديات تمثل خطرًا - على الوجود والكينونة - يستقر في شعور الأمة، فيستنفر طاقات أبنائها المخلصين، فينفجر الحراك الشعبي ليثمر من الإنجازات ما لم يكن يخطر ببال المتفائلين أن يتحقق في هذا التوقيت لولا هذه التحديات.

(3) ودخلت الخيل الأزهر ص 27.

إن مقاومة الجماهير للرموز الحضارية للمحتل كانت وعيًا مبكرًا بخطورة التغريب الذي حاولت الحملة الفرنسية فرضه فرضًا على الأمة المصدومة.

وكلمة السر في عمليات المقاومة الجماهيرية للذوبان الحضاري هي: الإسلام.

فقد كان الإسلام هو السد الوطني الذي تتكسر عنده أمواج الغزو الغربي؛ لأن الإسلام هو الرفض الحضاري للغزو الغربي، وكان الإسلام يتمثل في الرفض الغريزي من جانب الجماهير للغزاة الأجانب الذين يهددون وجودنا الحضاري ومستقبلنا ومصالحنا ؛ لذلك كان على الغزوة الاستعمارية الغربية أن تفتت مقاومة أمتنا بتجريدها من الإسلام[1] إما بالإبادة المباشرة للمسلمين، وإما بالتبشير، وإما بالعلمنة والتغريب، وهما الحلقة الأحدث والأخطر في سلسلة الهجمات الاستعمارية على العالم الإسلامي.

ومنذ ريتشارد قلب الأسد إلى (هيرولد) لا بد أن تفسر مقاومة الغزو الغربي بأنها من فعل التعصب الديني،.. وليس يعيب الأمم أن تتعصب لدينها وهويتها وحضارتها[2]، المهم أن يكون هذا التعصب طاقة دافعة للمقاومة الحضارية والاستجابة للتحديات، فهو تعصب محمود – بل ومطلوب – طالما لم يكن سببًا في العدوان على المخالف في الدين.

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 18.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 207.

الجنديات المجهولات في المقاومة الحضارية:

لا يفوتنا أن نبرز الأعمال البطولية التي قامت بها النسوة المناضلات في عمليات البعث الحضاري في قرون الانحدار، ولا أرى وصف الجنود المجهولين يصدق على أحد مثلما يصدق على الشهيدات والمجاهدات في وقت الحملة الفرنسية على مصر؛ حيث حفظت لنا سجلات التاريخ صفحات بيضاء سُطرت فيها - بأحرف من نور- بطولاتُ المصريات المجاهدات ضد جنود الحملة الفرنسية، ولقد تنوعت أشكال المقاومة والجهاد لتشمل كل ما يقوم به الرجال الذائدون عن حياضهم في مقاومة المحتل.

فنساء مصر الباسلات جدن بأنفسهن في عمليات القتال المباشر، وفي عمليات الإمداد للمقاتلين، ونلن مصير الرجال - من القتل والتنكيل بهن - جزاء بطولاتهن.

وقد بدأت مسيرة المرأة المصرية مع الجهاد والمقاومة منذ الساعات الأولى لدخول الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية؛ حيث شاركت النساءُ الرجالَ في القتال لصد الفرنسيين عن احتلال الإسكندرية.

وتعددت بطولات المصريات في أعمال المقاومة بعد ذلك:

فعند جزيرة فيلة (أنس الوجود) قال الجنرال بليار: «حمل الأهالي أسلحتهم، وصاحوا صيحات القتال، ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب والهيجاء، ويحثين التراب في وجوهنا[1]».

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 193.

وقال الكابتن (فيروس) حاكيًا ثورة أهالي (غمرين)[1] ضد الفرنسيين: «جاءنا المدد وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين وقتلنا من الأعداء (الأهالي) من أربعمائة إلى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام[2]»

وهنا تبلغ الحماسة بالرافعي الذروة؛ فلا يملك إلا أن يعلق: «فانظر إلى هذا الوصف، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال في مقاتلة الفرنسيين ودفعهم، وهذا – لعمري – من أبلغ ما يذكر عن استبسال شعب في الدفاع عن كيانه، وأبلغ منه أن الشهادة به جاءت من عدو»[3].

وكان للمرأة المصرية مشاركة من نوع آخر في تنظيم أعمال المقاومة، وهي عضوية مجلس قيادة الثورة؛ من خلال المشاركة في عضوية الديوان الشعبي السري الذي انتخبه الشعب عقب استيلاء الحملة الفرنسية على القاهرة، وظهرت باكورة أعماله البطولية في ثورة القاهرة الأولى.

فيرى الأستاذ «محمد جلال كشك» أن عقوبات «نابليون» – التي انتقم بها من المسئولين عن تأجيج ثورة القاهرة الأولى– تدل على أن عضوية مجلس قيادة الثورة لم تكن مقصورة على الرجال[4].

(1) إحدى قرى مركز منوف بمحافظة المنوفية، وتعرف ببلد الخمسمائة شهيد.
(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 187.
(3) ودخلت الخيل الأزهر ص 187 نقلًا عن الرافعي.
(4) ودخلت الخيل الأزهر ص 211.

قال المسيو (بوريين) – سكرتير «نابليون» الخاص – في مذكراته: «وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلية».

وقال الرافعي: «وقد أسرف الفرنسيون في القتل (بعد إخماد ثورة القاهرة الأولى) ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء، فقتلوا كثيرًا منهن، وهذا من أفظع ما سمع به من التنكيل وسفك الدماء».

ومن العجيب أن أصحاب المدرسة الاستعمارية في كتابة التاريخ أهملوا بطولات المصريات المسلمات العفيفات المجاهدات، وجعلوا الساقطات – اللاتي ارتبطن بعلاقات مشينة مع جنود الحملة الفرنسية – هن طليعة الثورة النسائية التحررية التي أحدثتها الحملة الفرنسية! [1].

وكأن تحرر المرأة في نظرهم المنكوس هو التحرر من الفضيلة، والقبول بابتذال المرأة نفسَها حتى تكون امرأة عصرية!

إن الطليعة الحقيقية للمرأة المصرية هن المصريات الباسلات اللاتي أعدمهن «نابليون» بالعشرات؛ لاشتراكهن في قيادة وتنظيم وتنفيذ ثورتي القاهرة، وهن الفلاحات المصريات الباسلات اللاتي اشتركن في قتال الجيش الفرنسي [2].

وهكذا نرى أن الدور (التحريري) الذي ينسبه مؤرخو المدرسة الاستعمارية إلى جيش الاحتلال الفرنسي – بالنسبة للمرأة المصرية – لم يكن يشمل كفاحها من أجل التحرر الوطني ولا حتى من أجل

(1) ينظر: محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص: 27، 226، 361.
(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 27.

تخفيف الضرائب، بل هو لا يتعدى خصرها، وإلا لرحب الحكم الثوري (بانطلاق) المرأة من (عقالها) واشتراكها في الثورة.

وإذا فهمنا دوافع جيش الاحتلال والسلطة الحاكمة في إعدام النساء الثائرات؛ فأي عذر وأي منطق يخفي عار من يتصدون اليوم لتزوير تاريخ هذا الشعب؛ فيجعلون من مظاهرة تطالب بفتح الحمامات أو الخروج مع العسكر الفرنسيين - في ثياب خليعة وتهتك خلقي- بداية لحركة تحرير المرأة! ويُغفِلون - عن عمد - اشتراك المرأة المصرية في أعمال المقاومة في الريف المصري، واشتراكها في قيادة الثورة بالقاهرة على نحو دفعت معه حياتها ثمنًا لهذا الاشتراك؛ فأعدمت قيادة الثائرات بحد السناكي في القلعة أو أغرقن في النيل !

أين يمكن أن يبحث المؤرخ الشريف عن قيادة الحركة النسائية وطلائع تحرير المرأة.. في سجن القلعة بين النساء الثائرات ينتظرن الإعدام بسناكي جيش الاحتلال دون أن يسجل تاريخ الحملة حادثة انهيار واحدة للمجاهدات الباسلات.. أم يبحث عن هذه القيادة في خمارات أشباه (برطلمين) وفي فراش جنود الاحتلال يقودهن أمثال (يعقوب) ؟! على أي حال فإن ذلك المفهوم يلقي الضوء على طبيعة مفهومهم لتحرير المرأة[1].

وقد برز في هذه الحقبة اسم السيدة نفيسة المرادية ذات المناقب العظيمة والمفاخر الجسيمة، وكانت زوجة «علي بك» الكبير، ثم «مراد بك»

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 226.

من بعده، وكانت على جانب عظيم من التثقيف والتهذيب، إلى روعة في الجمال وسمو في العواطف، مما جعلها تكتسب احترام الجميع، وكذلك اجتذبت قلوب الشعب؛ لما اشتهرت به من البر والإحسان ورفع المظالم، وحماية الضعفاء، وإيواء الفارين من ظلم الحكام، فعظمت مكانتها بين طبقات الشعب، وسرت شهرتها إلى الأوساط الأوربية؛ إذ عرف عنها الميل إلى تنشيط التجارة والصناعة، ومعارضة البكوات المماليك في سلب أموال التجار، وقد أهدتها الحكومة الفرنسية - قَبل الحملة - ساعة مرصعة بالماس قدمها لها القنصل (مجالون)، ولما جاءت الحملة الفرنسية صارت السيدة نفيسة المرادية غرضًا لفرض الإتاوات والغرامات الفادحة، حتى اضطروها للتنازل عن الساعة التي كان قد أهداها لها القنصل مجالون، فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجًا شريفًا منها[1].

ومن مناقبها في الإغاثة ورفع المظالم ما حكاه الجبرتي في حوادث شهر رجب سنة 1202ه: «وفيه قَتَل حمزة كاشف المعروف بالدويدار رجلًا نصرانيًّا روميًّا صائغًا اتهمه مع حريمه... وطلق الزوجة بعد أن أراد قتلها، فهربت عند الست نفيسة زوجة مراد بك[2]».

وفي حوادث سنة 1214ه: قال الجبرتي - في حكاية مطاردة الفرنسيين لواحد من رموز المقاومة الحضارية في هذا العصر-: وأما

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 374.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 51).

الشيخ محمد ابن الجوهري[1] فإنه اختفى فلم يجدوه؛ فنهبوا داره ودار

(1) يعد الشيخ محمد ابن الجوهري من أبرز مشايخ الأزهر الذين جمعوا - جمعًا فريدًا - بين العلم والتقوى ومقاومة الظلم والصدع بالحق؛ حيث كان - رحمه الله تعالى - صداعًا بالحق لا يخشى في الله لومة لائم، بل كان أمراء عصره يهابونه، ويتسابقون في السعي إليه والتبرك به، ويقبلون نصحه وصدعه بالحق، فكان نموذجًا فريدًا للعالم القائد المقاوِم ذي المواهب النادرة الذي يلتف حوله عامة الناس وخاصتهم، وكان من أبرز مواقفه: أنه طلب من نابليون إخراج العسكر من الأزهر، فاستجاب له وأمر بإخراج الجنود. قال الجبرتي في وفيات سنة خمس عشر ومئتين وألف: «مات الإمام الألمعي والذكي اللوذعي، من عجنت طينته بماء المعارف وتآخت طبيعته مع العوارف، العمدة العلامة والنحرير الفهامة فريد عصره ووحيد دهره الشيخ محمد بن أحمد بن حسن بن عبد الكريم الخالدي الشافعي الشهير بابن الجوهري... ولد سنة إحدى وخمسين ومائة وألف، ونشأ في حجر والده في عفة وصون وعفاف... وكان آية في الفهم والذكاء والغوص والاقتدار على حل المشكلات، وأقرأ الكتب وألقى الدروس بالأشرفية وأظهر التعفف والانجماع عن خلطة الناس والذهاب والترداد إلى بيوت الأعيان والتزهد عما بأيديهم؛ فأحبه الناس وصار له أتباع ومحبون... واتخذ له مكانًا خاصًّا بمنزل والده يجلس فيه في أوقات، وكل من حضر عند أبيه في حال انقطاعه - من الأكابر أو من غيرهم للزيارة أو للتلقي- يأمره بزيارة ابنه المترجَم والتلقي عنه وطلبهم الدعاء منه ويحكي لهم عنه مزايا وكرامات ومكاشفات ومجاهدات وزهديات؛ فازداد اعتقاد الناس فيه، وعاشر العلماء والفضلاء من أهل عصره ومشايخه وقرنائه وتردد عليهم وترددوا عليه ويبيتون عنده ويطعمهم ويكرمهم ويتنزه معهم في أيام النيل مع الحشمة والكمال ومجانبة الأمور المخلة بالمروءة، ولما مات أخوه الكبير الشيخ أحمد - وقد كان تصدر بعد والده في إقراء الدروس - أجمع الخاص والعام على تقدم المترجَم في إقراء الدروس

نسيبه المعروف بالشويخ، ثم إنه توسل بالست نفيسة زوجة «مراد بك»، فأرسلت إلى «مراد بك» وهو بالقرب من الفشن فأرسل من عنده كاشفًا

في الأزهر والمشهد الحسيني في رمضان؛ فامتنع من ذلك وواظب على حالة انجماعه وطريقته... وزاد في الانجماع والتحجب عن الناس في أكثر الأوقات؛ فعظمت رغبة الناس فيه، ورد هداياهم مرة بعد أخرى وأظهر الغنى عنهم؛ فازداد ميل الناس إليه وجبلت قلوبهم على حبه واعتقاده وتردد الأمراء وسعوا لزيارته أفواجًا وربما احتجب عن ملاقاتهم وقلد بعضهم بعضًا في السعي، ولم يعهد عليه أنه دخل بيت أمير قط، أو أكل من طعام أحد قط إلا بعض أشياخه المتقدمين، وكانت شفاعته لا ترد عند الأمراء والأعيان مع الشكيمة والصدع بالأمر والمناصحة في وجوههم إذا أتوا إليه، وازدادت شهرته وطار صيته ووفدت عليه الوفود... وقصدوا زيارته والتبرك به... ولم يزل وافر الحرمة معتقدًا عند الخاص والعام حتى حضر الفرنساوية واختلت الأمور وشارك الناسَ في تلقي البلاء وذهب ما كان له بأيدي التجار، ونهب بيته وكتبه التي جمعها وتراكمت عليه الهموم والأمراض وحصل له اختلاط ولم يزل حتى توفي يوم الأحد حادي عشرين شهر القعدة سنة تاريخه بحارة برجوان وصلي عليه بالأزهر في مشهد حافل... وبالجملة فكان من محاسن مصر والفريد في العصر، ذهنه وقاد ونظمه مستجاد وكان رقيق الطبع لطيف الذات مترفها في مأكله وملبسه. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 440).

وقد سجل نقولا الترك أن الشيخ (محمد الجوهري) دخل على نابليون قائلًا: «ما قابلت حاكمًا عادلًا كان أو ظالمًا، والآن قد أتيتك متوسلًا إليك أن تأمر بإخراج العسكر من الجامع الأزهر، فقبل نابليون رجاءه وأمر بإخراج الجنود من الأزهر. انتهى. ودخلت الخيل الأزهر ص 221. وإنما أطلت في عرض ترجمته؛ لأنه يعد من رموز المقاومة الحضارية في هذه الحقبة.

وتشفع فيه؛ فقبلوا شفاعته ورفعوها عنه[1]».

ويحكي الجبرتي في حوادث سنة 1219ه: «وفي يوم الاثنين أرسل الباشا الوالي والمحتسب إلى بيت الست نفيسة زوجة «مراد بك» وطلبها فركبت معهما وصحبتهما امرأتان، فطلعا بهن إلى القلعة وكذلك أرسلوا بالتفتيش على باقي نساء الأمراء فاختفى غالبهن وقبضوا على بعضهن وذلك كله بعد عصر ذلك اليوم، فلما حصلت الست نفيسة بين يديه قام إليها وأجلَّها ثم أمرها بالجلوس وقال لها على طريق اللوم: (يصح أن جاريتك «منور» تتكلم مع مصادق آغا وتقول له: يسعى في أمر المماليك العصاة، وتلتزم له بالمكسور من جامكية العسكر؟) فأجابته: (إن ثبت أن جاريتي قالت ذلك فأنا المأخوذة به دونها)، فأخرج من جيبه ورقة وقال لها: (وهذه؟) وأشار إلى الورقة، فقالت: (وما هذه الورقة؟ أرنيها؛ فإني أعرف أن أقرأ لأنظر ما هي) فأدخلها ثانيًا في جيبه. ثم قالت له: (أنا بطول ما عشت بمصر وقدري معلوم عند الأكابر وخلافهم، والسلطان ورجال الدولة وحريمهم يعرفونني أكثر من معرفتي بك، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس - الذين هم أعداء الدين - فما رأيت منهم إلا التكريم، وكذلك سيدي محمد باشا كان يعرفني ويعرف قدري ولم نرَ منه إلا المعروف، وأما أنت فلم يوافق فعلُك فعلَ أهل دولتك ولا غيرهم). فقال: (ونحن أيضًا لا نفعل غير المناسب). فقالت له: (وأي مناسبة في أخذك لي من بيتي بالوالي مثل أرباب الجرائم؟)، فقال: (أنا أرسلته لكونه أكبر أتباعي؛ فإرساله من باب

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 349).

التعظيم) ثم اعتذر إليها وأمرها بالتوجه إلى بيت «الشيخ السحيمي» بالقلعة، وأجلسوها عنده بجماعة من العسكر، وأصبح الخبر شائعًا بذلك؛ فتكدرت خواطر الناس لذلك، وركب القاضي ونقيب الأشراف والشيخ السادات والشيخ الأمير وطلعوا إلى الباشا وكلموه في أمرها فقال: (لا بأس عليها وإني أنزلتها ببيت الشيخ السحيمي مكرمة حسمًا للفتنة؛ لأنها حصل منها ما يوجب الحجز عليها). فقالوا: (نريد بيان الذنب وبعد ذلك إما العفو أو الانتقام) فقال: (إنها سعت مع بعض كبار العسكر تستميلهم إلى المماليك العصاة ووعدتهم بدفع علوفاتهم، وحيث إنها تقدر على دفع العلوفة فينبغي أنها تدفع العلوفة) فقالوا له: (إن ثبت عليها ذلك فإنها تستحق ما تأمرون به فيحتاج أن تتفحص على ذلك) فقام إليها الفيومي والمهدى وخاطباها في ذلك فقالت: (هذا الكلام لا أصل له وليس لي في المصرلية[1] زوج حتى إني أخاطر بسببه فإن كان قصده مصادرتي فلم يبق عندي شيء وعليّ ديون كثيرة) فعادوا إليه وتكلموا معه ورادهم فقال الشيخ الأمير للترجمان: (قل لأفندينا هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفاسد وبعد ذلك يتوجه علينا اللوم فإن كان كذلك فلا علاقة لنا بشيء من هذا الوقت أو نخرج من هذه البلدة) وقام قائمًا على حيله يريد الذهاب، فأمسكه مصطفى أغا الوكيل وخلافه وكلموا الباشا في إطلاقها وأنها تقيم ببيت الشيخ السادات؛ فرضي بذلك وأنزلوها ببيت الشيخ السادات» [2].

(1) تعني: في المماليك.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 656).

لم يكن في الحملة الفرنسية كلها امرأة احتفظ التاريخ باسمها كما احتفظ باسم السيدة نفيسة المرادية، ولا كان في فرنسا ذاتها امرأة تتمتع بنفوذ وتجري مفاوضات وتدير شئون السياسة وتتصدى لجور الحكام وتنصر المظلومين كما كانت السيدة نفيسة المرادية[1].

وكان من نساء مصر في تلك الحقبة من قدَّمن لقضايا الأمة مثل ما قدمت السيدة نفيسة المرادية وأكثر منه، حين تعرضن لأبشع أنواع التنكيل على يد المحتل وأذنابه، لكن لم يحفظ لنا التاريخ أسماءهن، فاستحققن عن جدارة أن يلقبن بـ(الجنديات المجهولات) في مسيرة المقاومة الحضارية في قرون الانحدار.

ولا تزال أمثال هذه النماذج تحيا بيننا في صمود يخجل صناديد الرجال، ومما يؤسف له أن أكثر ما تقاسيه نساء الأمة -الصامدات في هذا العصر- من التنكيل يكون على أيدي المستبدين الذين تتشدق وسائل إعلامهم باحترام حقوق المرأة بينما يمارس زبانيتهم على الحرائر من ألوان البطش والتنكيل ما يكون معه الحديث عن الحقوق إفكًا مفضوحًا.

وعلى جانب آخر كان لنساء الجزائر دور عظيم في المقاومة الحضارية ضد الاستعمار الفرنسي، وابتدأ هذا الدور بالحفاظ على الهوية بواسطة التربية الإسلامية، وكان للتربية الإسلامية دور عظيم في صناعة الأجيال المجاهدة التي تم على أيديها التحرير.

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 374.

وكانت هذه المرأة الجزائرية المجاهدة تتمسك بحجابها الإسلامي طوال زمن الاحتلال باعتباره رمزًا ووسيلة للمقاومة الحضارية لثقافة المحتل التي حاول فرضها بالقوة على الشعوب المسلمة[1].

الغلام البطل:

لم تقتصر مقاومة المصريين على بطولات رجال مصر ونسائها، بل حفظت لنا سجلات التاريخ قصة بطولية في المقاومة بطلها طفل صعيدي.

فمن أروع قصص الجنود المجهولين في مقاومة المحتل الفرنسي قصة غلام قرية (الفقاعي) [2]، وهي قصة يهتم بها المؤرخون الغربيون وبعض المصريين، وهذا الغلام فلاح مصري -لم تتجاوز سنه الثانية عشرة- يسرق بنادق الجيش الفرنسي ويرفض الاعتراف على محرضيه، ويتحمل الضرب بصبر عجيب.

ففي الفقاعي تقدم أحد غلمان القرية وتغفل جنود الجنرال ديزيه وجواسيسه واستولى على بنادقهم، فرآه جندي فتعقبه وضربه بالسيف على ذراعه، وساقَه جريحًا إلى الجنرال (ديزيه) للقصاص منه... وهنا تسجل المصادر الفرنسية حوارًا أذهل قادة جيش الاحتلال، فعندما سأله الجنرال عما دعاه لارتكاب هذا الفعل، أجاب الغلام رابط الجأش ناظرًا إلى السماء: (إن الله القادر على كل شيء أمره بذلك)

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 28.

(2) قرية تابعة لمركز ببا بمحافظة بني سويف.

فسأله الجنرال عمن حرضه على فعلته فقال: (لم يحرضني أحد، وإنما ألهمني الله أن أفعل ما فعلت) ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال في هدوء وثبات: (دونك رأسي فاقطعوه) فدهش الجنرال من شجاعته واكتفى بأن يجلده بالسوط ثلاثين جلدة، فجلد الغلام لا يتأوه ولا يتململ.

ويرجح الأستاذ «محمد جلال كشك» أن الغلام كان يتبع تنظيمًا ما، وأن هذه القصة تثبت أن التنظيم الوطني في صعيد مصر كان يعتمد -كما هي العادة في الحروب التحريرية- على مخازن العدو موردًا أساسيًّا للسلاح، وقد ثبت دائمًا أن الأحداث هم خير من يقوم بعمليات من هذا النوع[1].

جنود التضامن العربي والإسلامي:

من الجنود المجهولين في المقاومة الحضارية: أهل الأقطار العربية والإسلامية الذين وفدوا من خارج القطر المصري لمناصرة ثورات المصريين ضد الحملة الفرنسية، وهذه الإسهامات لا تقلل من شأن بطولات المصريين في صد العدوان، ومن ثم فلا أجد مسوغًا للحساسية التي يبديها بعضُ المؤرخين المصريين تجاه إسهامات أهل الأقطار العربية والإسلامية في مناصرة أهل مصر ضد الغزو الفرنسي، لأن هذه الحساسية تجافي مسلك الإنصاف الذي ينبغي أن يتسم به المؤرخ النزيه، بل إن التأريخ لهذه الإسهامات مما ينبغي أن يفتح شهية المؤرخ الحريص على إظهار التضامن بين أقطار الأمة الإسلامية، هذا

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 199.

التضامن النابع من إدراك هؤلاء الأبطال لمعاني الوحدة التي علمها لنا الإسلام في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92].

ويبدو أن هذه آفة تعتري مناهج بعض المؤرخين المصريين في التأريخ لبطولات المصريين عمومًا في صد الاحتلال؛ لأن مثل هذا التحسس ظهر في تناول بعض مؤرخي معركة العاشر من رمضان 1393 هـ = السادس من أكتوبر 1973م، حيث تعمد بعضهم إخفاء نبأ مساهمة قوات عربية من أقطار مختلفة في بعض معارك العبور، لكن حرص بعض كتاب تاريخ معركة العبور على إظهار هذه الإسهامات؛ لما فيها من إظهار التضامن العربي في مواجهة العدوان الصهيوني.

يقول الأستاذ محمد الشاويش: «ولعل هذه المشاركات العربية الإسلامية المهمة في مقاومة الفرنسيين مما يغفل ذكره عادة، ولا أعتقد أن سبب ذلك بريء دائمًا؛ إذ كان بعض من المؤرخين للحملة الفرنسية لاحقًا ممن كانوا يرفعون شعار القومية المصرية، ويجتهدون في عزل مصر عن سياقها الديني والحضاري واللغوي[1]».

وبعد هذه المقدمة نعود لمسألة التضامن العربي والإسلامي في صد العدوان الفرنسي، فيحكي الجبرتي مثلًا في حوادث سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف: «ومنها: تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلًا مغربيًّا -يقال له: «الشيخ الكيلاني»- كان مجاورًا بمكة والمدينة

(1) نهضات مجهضة ص 25.

والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية ؛ انزعج أهل الحجاز لذلك، وضجوا بالحرم، وجردوا الكعبة، وأن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد، ويحرضهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتابًا مؤلفًا في معنى ذلك، فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم، واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه، فورد الخبر في أواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج معهم مع غزو مصر عند وقعة إنبابة[1]، وركب الغز معهم أيضًا وحاربوا الفرنسيس، فلم

(1) يسميها الفرنسيون (موقعة الأهرام)، وكانت في يوم السبت السابع من شهر صفر سنة 1213ه بحسب تأريخ الجبرتي، وهي أول مواجهة بين الفرنسيين والقوات التي اجتمعت بالقاهرة لصد جنود الحملة بعد استيلائهم على الإسكندرية، وأسفرت عن هزيمة القوات المصرية والقوات المتحالفة معها واستيلاء الفرنسيين على القاهرة. وقد أحسن الجبرتي تشخيص أسباب الهزيمة في هذه المعركة فقال: «ثم في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر، وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجيء منها فمنهم من يقول: إنهم واصلون من البر الغربي، ومنهم من يقول: بل يأتون من الشرقي، ومنهم من يقول: بل يأتون من الجهتين، هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسًا أو طليعة تناوشهم بالقتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء المصر، بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه؛ ينتظر ما يفعل بهم، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو. ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر وصل

الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت فوصلوا إلى أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم مختالون في رئيسهم مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم مرتبكون في رويتهم مغمورون في غفلتهم، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم... ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع وكذلك العساكر المحاربون البحرية وحضر عدة وافرة من عساكر الأرنؤد من دمياط وطلعوا إلى إنبابة وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس، فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم: يا رب، ويا لطيف، ويا رجال الله ونحو ذلك، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم، فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم: (إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح) فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه، ومن يقرأ ومن يسمع! وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرض الشرقي ومنهم إبراهيم بك الوالي وشرعوا في التعدية إلى البر الغربي في المراكب فتزاحموا على المعادي؛ لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جدًّا؛ فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة به على المحاربين، هذا والريح النكباء اشتد هبوبها وأمواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 188).

تثبت الغز كعادتهم وانهزموا، وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعة من القرى، وثبت الحجازيون ثم انكفوا؛ لقلتهم وذلك بناحية (جرجا)، وهرب الغز والمماليك إلى ناحية إسنا، وصحبتهم حسن بك الجداوي وعثمان بك حسن تابعه، ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع[1]».

وقال الجبرتي: «ولما عجز الفرنساوية عن أخذ عكا وعزموا على الرجوع إلى مصر أرسل بونابارته مكاتبة إلى الفرنساوية المقيمين بمصر يقول فيها: إن الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سببًا.....

السادس: بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلاني لناحية الصعيد.

السابع: المغربي محمد الذي صار له جيش كبير وادعى أنه من سلاطين المغرب[2]».

وهذا النص يبرز أهمية الدور الذي قام به أهل الأقطار العربية والإسلامية في مناصرة المصريين، واستنزاف الفرنسيين، حتى إن قدوم هذه الوفود كان من الأسباب التي اضطرت «نابليون» إلى فك حصاره عن عكا.

قال الأستاذ محمد جلال كشك تعليقًا على وصف الجبرتي: «ولا أظن أن محللًا ديالكتيكيًا معاصرًا يستطيع أن يقدم تشريحًا لطبقة منهارة وجيش انتهى دوره كقوة مقاتلة مثلما فعل الشيخ الجبرتي الأزهري، مما يؤكد أن فهم قوانين التخلف لم يكن مستعصيًا على شيوخ الأزهر ولكن لم يسعفهم الدهر». ودخلت الخيل الأزهر ص 164.

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 251).

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 288).

كما ورد في إعلان صادر من قيادة القوات الفرنسية[1]، حكاه الجبرتي، أن كتيبة من أهل الشام وفدوا لمناصرة المصريين، فجاء في هذا الإعلان: «ونخبركم أيضًا أن الجنرال يونوت انتصر على أربعة آلاف مقاتل حضروا من الشام - خيالة ومشاة - فقابلتهم بثلثمائة عسكري مشاة من عسكرنا؛ فكسروا التجريدة المذكورة وأوقع منهم نحو ستمائة نفس ما بين مقتول ومجروح وأخذ منهم خمسة بيارق[2]».

وقد ظهرت في هذه النصوص أسماء لمجاهدين مجهولي الهوية، لكن كان لهم دور قوي في إحداث التضامن العربي الإسلامي في مقاومة المحتل...

الجيلاني (الكيلاني):

تقدم حكاية الجبرتي خبر تحريضه أهل الحجاز على الزحف لمناصرة إخوانهم بمصر، وما كان لدعوته من أثر بالغ في إلهاب مشاعر الإخوة الإسلامية التي حملت المئات من أهل الحجاز- ومن انضم إليهم - على الزحف للجهاد في مصر.

ولم يذكر الجبرتي ما يفيد في تحديد هويته، بل نسبه إلى المغرب، وذكر أنه كان مجاورًا بالحرم، وأنه حرض أهل الحجاز على مناصرة أهل مصر.

---

(1) في 27 من ذي القعدة سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 272).

وذكر الجبرتي وفاته في حوادث شهر ذي القعدة من سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف فقال: «ومنها أن الكيلاني المذكور آنفًا توفي -رحمه الله تعالى- وتفرقت طائفته في البلاد...».

وقد اجتهد الباحث المغربي الدكتور/ محمد حواش في تحديد شخصية الجيلاني، وتوصل إلى أنه «الشيخ محمد الجيلاني»، وأنه متزعم الحركة الجهادية التي وفدت من بلاد المغرب، وأن ساعده الأيمن كان ابن أخته: الشريف حسن، وأنهم أفراد عائلة شريفة من المغرب الأقصى، وبالذات قبيلة أولاد أبي السباع الإدريسية الحسنية الهاشمية المغربية[1].

وكان من إنجازات الشيخ محمد الجيلاني ورجاله:

إفشال مشروع استيلاء الفرنسيين على ميناء القصير الإستيراتيجي.

والاستيلاء على سفينة «نابليون» المفضلة (إيطاليا) في معركة أبنود الأولى[2].

---

(1) خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 332، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.

(2) خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 352، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.

مولاي محمد المغربي:

حكى الجبرتي حكايته في مواضع من تاريخه الماتع، وكان يصفه بالرجل المغربي - وقال: إنه ادعى المهدوية، وإنه من سلاطين المغرب - دون أن يذكر ما يفيد في تحديد شخصيته، فقال الجبرتي: «واستهل شهر ذي الحجة بيوم الثلاثاء سنة 1213.. في ثانيه خرج نحو الألف من عسكر الفرنسيس للمحافظة على البلاد الشرقية؛ لتجمع العرب والمماليك على الألفي، وكذلك تجمع الكثير من الفرنسيس وذهبوا إلى جهة دمنهور وفعلوا بها ما فعلوا في بني عدي من القتل والنهب؛ لكونهم عصوا عليهم بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربي يدعي المهدوية ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد وصحبته نحو الثمانين نفرًا، فكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم إلى الجهاد فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنساوية، واستمر أيامًا كثيرة تجتمع عليه أهل تلك النواحي وتفترق والمغربي المذكور تارة يغرب وتارة يشرق[1]».

وقال في موضع آخر: «وحضر أيضًا رجل مغربي يقال: إنه الذي كان يحارب الفرنسيس بجهة البحيرة سابقًا، والتف عليه طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قدم صحبة الجيلاني الذي تقدم ذكره، وفعل ذلك الرجل المغربي أمورًا تنكر عليه؛ لأن غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه، فكان يتجسس

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 273).

على البيوت التي بها الفرنسيس والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلي والثياب، ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة؛ طمعًا فيما على رأسها وشعرها من الذهب[1]».

وقال في موضع آخر حاكيًا خبر الصلح الذي عرضه الفرنسيين بعد اندلاع ثورة القاهرة الثانية: «فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم، وضربوا الشرقاوي والسرسي ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون: (هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس)، وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول، وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه أخلاط العالم ونادى من عند نفسه: الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنه ضرب عنقه... ووافق ذلك أغراض العامة؛ لعدم إدراكهم لعواقب الأمور؛ فالتفوا عليه وتعضد كل بالآخر وأن غرضه هو في دوام الفتنة؛ فإن بها يتوصل لما يريد من النهب والسلب والتصور بصورة الإمارة: باجتماع الأوغاد عليه، وتكفُّلِ الناسِ له بالمأكل والمشرب هو ومن انضم إليه، واشتطاطٍ في المأكل مع فقد الناس لأَدْونِ ما يؤكل، حتى إنه كان إذا نزل جهة من جهات المدينة -لإظهار أنه يريد المعونة أو الحرس- فيقدمون له بالطعام فيقول: لا آكل إلا الفراخ، ويظهر أنه

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 327).

صائم فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعنته في هذه الشدة بطلب أفحش المأكولات وما هو مفقود ثم هو مع ذلك لا يغني شيئًا، بل إذا دهم العدو تلك الجهة التي هو فيها فارقها وانتقل لغيرها، وهكذا كان ديدنه، ثم هو ليس ممن له في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك، بل كما قيل: (لا ناقتي فيها ولا جملي)، فإذا قدر ما قدر؛ تخلص مع حزبه إلى بعض الجهات والتحق بالريف أو غيره، وحينئذ يكون كآحاد الناس ويرجع لحالته الأولى وتبطل الهيئة الاجتماعية التي جعلها لجلب الدنيا فخًّا منصوبًا ومَخْرَقَ بها على سخاف العقول وأخِفَّاء الأحلام، وهكذا حال الفتن: تكثر فيها الدجاجلة، ولو أن نيته ممحضة لخصوص الجهاد؛ لكانت شواهد علانيته أظهر من نار على علم، أو اقتحم -كغيره ممن سمعنا عنهم من المخلصين في الجهات وفي بيع أنفسهم في مرضاة رب العباد- لظى الهيجاء، ولم يتعنت على الفقراء ولم يجعل همته في السلب مصروفة وحال سلوكه عند الناس ليست معروفة.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وبالجملة فكان هذا الرجل سببًا في تهدم أغلب المنازل بالأزبكية، ومن جملة ما رُمِيت به مصر من البلاء، وكان ممن ينادى به عليه حين أشيع أمر الصلح وتكلم به الأشياخ: (الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر ضرب عنقه) وهذا منه افتيات وفضول ودخول فيما لا يعني؛

حيث كان في البلد مثل الباشا والكتخدا والأمراء المصرية، فما قدْرُ هذا الأهوج حتى ينقض صلحًا أو يبرمه؟ وأي شيء يكون هو حتى ينادي أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه أحد لذلك؟ لكنها الفتن يستنسر بها البغاث، سيما عند هيجان العامة وثوران الرعاع والغوغاء؛ إذ كان ذلك مما يوافق أغراضهم، على أن المشايخ لم يأمروا بشيء ولم يذكروا صلحًا ولا غيره، إنما بلغوا صورة المجلس - الذي طُلبوا لأجله - لحضرة الكتخدا، فبمجرد ذلك قامت عليهم العامة هذا المقام وسبوهم وشتموهم بل وضربوهم وبعضهم رموا بعمامته إلى الأرض وأسمعوهم قبيح الكلام وفعلوا معهم ما فعلوا وصاروا يقولون: (لولا أن الكفرة الملاعين تبين لهم الغلب والعجز؛ ما طلبوا المصالحة والموادعة وأن بارودهم وذخيرتهم فرغت) ونحو ذلك من الظنون الفاسدة[1]».

ويؤخذ من النصوص السابقة أن هذا الرجل المغربي كان يحرض الناس على الثبات في قتال الفرنسيين، ورفض دعوات المصالحة، وقد حكى الجبرتي من أفعال الرجل ما يناقض دعوته للثبات، ورأى الجبرتي أن هذا الرجل من أدعياء الثورة والجهاد الذين يستغلون حالة الاضطراب في أوقات الفتن لنيل مآرب شخصية تحت ستار الدعوة للثورة والجهاد.

غير أن الباحث المغربي الدكتور/ محمد حواش يخالف الجبرتي في رأيه السلبي عن هذا المغربي المجهول بحسب كلام الجبرتي، وادعى الدكتور حواش أن هذا الرجل المغربي هو: (مولاي

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 337).

محمد المغربي)، ورجح أن اسمه: (محمد بن عبد الله بن الأحرش الدرعاوي) وأنه هو صاحب الثورة التي اندلعت شرق الجزائر بعد ذلك اعتراضًا على توقيع داي الجزائر اتفاقية الصلح مع فرنسا، وأنه من قادة المقاومة والجهاد وقت الحملة الفرنسية، وأن حركته شكلت خطورة على القوات الفرنسية؛ لأنها اجتاحت محافظات الوجه البحري القريبة من الأسطول الإنجليزي - الذي كان يمارس سيطرةً شبه مطلقة على الساحل المتوسطي لمصر- ولأنه بذل مجهودات كبيرة في ردم الهوة بين العثمانيين والزعيم المملوكي الكبير مراد بك الذي كان قد دخل في صلح مشروط مع الفرنسيين[1].

كما كان لمولاي محمد المغربي دور مهم في تنسيق الجهود الحربية مع كل الأطراف المعنية بمقاتلة الفرنسيين، المحلية منها والإقليمية والدولية: من أهالٍ ومماليك وعربان وعثمانيين وإنجليز، وتمخض هذا الحراك عن تأليف جيش يتميز بقدر كبير من التماسك الوطني والإقليمي[2].

وقد تضافرت العوامل السابقة لتمييز خطته التعبوية، وتمكينه من جلب المؤيدين والأتباع على نحو أدخل الرعب والهلع في نفوس السلطات العسكرية الفرنسية، وأرغمهم على التسليم بالهزيمة في أكثر

(1) خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 367- 377، 390، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.

(2) المرجع السابق ص 396.

من معركة، وأرغم «نابليون» على رفع حصاره عن عكا، الأمر الذي حوله - في وقت وجيز- إلى زعيم كبير تلتف حول شخصه جموع غفيرة في أكبر حركة جهادية عرفها إقليم البحيرة والوجه البحري بصفة عامة، حتى إن أحد المصادر الفرنسية قدر عدد الذين قاتلوا تحت قيادته في إحدى المعارك بين عشرين ألفًا وخمسة وعشرين ألف رجل، وهذا يدل على مدى النفوذ والشعبية اللتين حظي بهما هذا المجاهد المغربي في بلد إسلامي يبعد عن موطنه الأصلي آلاف الكيلومترات[1].

ويرى الدكتور/ حواش أن التجاوب الواسع الذي قوبلت به دعوة مولاي محمد بن الأحرش المغربي -قبل وبعد دخوله مصر- لا يمكن ربطه فقط بادعائه المهدوية ودعوته إلى مقاتلة الكفار بعد استباحتهم لواحدة من البلدان الإسلامية الأكثر قربًا من وجدان المغاربة، أو علاقات الانتماء الوطني والإقليمي التي كانت توجد بين أتباعه ومؤيديه، بل يضاف إلى هذا: أنه كان يتحرك ضمن خريطة بشرية وسياسية معروفة لديه منذ أن كان يقود ركب حجاج الشرفاء المغاربة، كما أن خطته كانت تشمل عنصرًا مهمًّا هو حرب الإشاعة التي استخدمها - هو وأتباعه - بحنكة ودهاء، ذلك أنه بمجرد دخوله القطر المصري أخذ - هو وأتباعه - يشيعون في الناس أنهم لا يمثلون سوى جزء يسير من جيش مغربي جرار يتقدم عبر الصحراء نحو مصر لاستخلاصها من الفرنسيين.

(1) المرجع السابق ص 396- 402.

وقد آتت هذه الخطة أكلها على الوجه الأكمل حينما أوقعت السلطات العسكرية الفرنسية في حالة من الارتباك والذهول، فتعطلت لدى كثير من قادتها حرية التحرك واتخاذ القرارات المناسبة. في حين شجعت حرب الإشاعة هذه الأهالي على الانضمام - بوتيرة متزايدة - إلى صفوف (جيش الإنقاذ) هذا الذي حضر على حين غرة بين ظهرانيهم في تلك اللحظات العصيبة. وهذا ما تؤكده مختلف المراسلات المتبادلة بين السلطات الفرنسية العليا[1].

وقد فسر الدكتور/ حواش الباعث الذي حمل مولاي محمد على الجهاد بمصر بأنه قد جال في خاطره أن أرض الكنانة قد ضاعت من المسلمين، سيما وأن نكبة الأندلس كانت ذكراها لا تزال حية في الأذهان[2].

ورأى الدكتور حواش أن الجبرتي كان متعسفًا - في حكمه على مولاي محمد المغربي بأن غرضه كان النهب والسلب - رغم إقرار الجبرتي بكفاءة هذا الرجل القتالية وقدرته على حشد الثوار وإطالة عمر الثورة، ومما زاد من خطورة هذه الاتهامات: تبنيها من قبل عدد من الدارسين والباحثين المصريين الذين لم يترددوا في استغلالها لإذكاء النزعة الوطنية و«تحرير» التاريخ المصري من «المندسين والدخلاء»، ولو كانوا من العرب والمسلمين مثل مولاي محمد المغربي ورجاله[3].

(1) المرجع السابق ص 404.
(2) المرجع السابق ص 384.
(3) المرجع السابق ص432.

إلا أن باحثين مصريين آخرين لم تؤثر فيهم لهجة الجبرتي التحاملية، ولم ينساقوا وراء النزعة الوطنية التي أضحت تهيمن على الكتابة التاريخية في مصر، ومنهم على سبيل المثال: يونان لبيب رزق، الذي تصدى - صحبة الباحث المغربي محمد مزين - لروايات الجبرتي في هذا الباب، فأخضعاها لمراجعة نقدية كشفت البواعث الخفية التي أطَّرت نظرة الجبرتي لحدث الثورة ككل، وأعمال مولاي محمد المغربي منها على وجه الخصوص.

أما محمد مورو فقد تصدى بدوره لكشف نوازع النظرة الضيقة - أو ما أسماه بـ(الأطروحة الإسلامية ذات التشوهات القومية) - التي عالج بها «محمد جلال كشك» بعض القضايا المتصلة بالمقاومة الإسلامية لجيش الحملة الفرنسية على مصر، وخاصة ما يتعلق منها بما قام به مولاي محمد المغربي من جهادات في هذا الإطار[1].

ورد الدكتور/ حواش على اتهامات الجبرتي لهذا الرجل بردود منها: أن تشدد مولاي محمد المغربي في رفض الصلح وإلقاء السلاح كان سببًا في طول أمد ثورة القاهرة الثانية واتساع نطاقها.

وأن صدور بعض الهفوات أمر مسلم، لكنه لا يقدح في بطولاته، ولا ينفي عنه وصف المجاهدين.

وبالجملة فحركة مولاي محمد المغربي كانت من صور التضامن العربي مع المحنة التي عاناها المصريون من جراء هذا العدوان الاستعماري.

(1) المرجع السابق.

وربما رأى البعض في تحليل الدكتور/ حواش أن عاطفته الوطنية - تجاه مواطنه المغربي - حملته على المبالغة في إضفاء أوصاف التبجيل على مولاي محمد المغربي وحركته في المقاومة، لكن لما كان الدكتور/ حواش قد اعتمد في بحثه على كثرة من المراجع العربية والأجنبية، فقد وجدت لكلامه مصداقية لا تطعن في رأي الجبرتي - الذي نحترم رأيه ولا نشك في أمانته في نقل الوقائع - لكنها تجعلنا مطمئنين لعرض حركة مولاي محمد المغربي باعتبارها من نماذج المقاومة الحضارية التي يظهر فيها التضامن العربي الإسلامي في مواجهة المحتل الأجنبي.

خامسًا: وليتَ العامةَ شُكِروا!

كثيرا ما يضحي العامة - وقت انهيار العسكر والقيادة الرسمية - ومع هذا لا ينسب إليهم فضل، ولا يوجه إليهم شكر، بل كثيرًا ما يُنسب الفضل إلى غير أهله، فيصنع العامة البطولات، ويسرق القادةُ المنهارون الإنجازات.

وقد أحسن الجبرتي في وصف هذه الظاهرة - في تعليقه على بطولات الجماهير في صد حملة فريزر عام -1807 فعقب عليها بقوله: «وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب إليهم فعل! بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره[1]».

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 196) بتصرف.

فقد أظهر العامة من البطولة والتفاني في الجهاد وحماية الأمة ما يدهش الألباب، ويغطي على عجز العسكر وجبنهم وتخليهم عن شرف الجهاد من أجل الذود عن حياض الوطن، ومع هذا لم ينسب للعامة أي فضل؛ قال الجبرتي: «ولما شاع أخذهم[1] الإسكندرية داخلَ العسكرَ والناسَ وهمٌّ عظيم، وعزم أكثر العسكر على الفرار إلى جهة الشام، وشرعوا في قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التي أعطوها للمتضايقين والمستقرضين بالربا... وفارق الكثير منهم النساء... حتى إن «محمد علي باشا» لما بلغه حصولهم بالإسكندرية - وكان يحارب المصريين ويشدد عليهم - فعند ذلك انحلت عزائمه، وأرسل يصالحهم على مايريدونه ويطلبونه، وثبت في يقينه استيلاء الإنكليز على الديار المصرية، وعزم على العود متلكئًا في السير يظن سرعة ورودهم إلى المدينة فيسير مشرقًا على طريق الشام ويكون له عذر بغيبته في الجملة فلما وصلت الشرذمة الأولى من الإنكليز إلى رشيد ودخلوها من غير مانع وحُبسوا، وحَبسوا أنفسهم فيها فقُتلوا وأسروا وهرب من هرب ووصلت الرءوس والأسرى وأسرع المبشرون إلى الباشا بالخبر؛ فعند ذلك تراجعت إليه نفسه وأسرع في الحضور، وتراجعت نفوس العساكر وطمعوا عند ذلك في الإنكليز وتجاسروا عليهم، وكذلك أهل البلاد قويت هممهم وتأهبوا للبروز والمحاربة واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد وكثر المتطوعون... وجمعوا من بعضهم

(1) يعني الإنجليز.

دراهم وصرفوا على من انضم إليهم من الفقراء... فلما وصلوا إلى متاريس الإنكليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم وصدقوا في الحملة عليهم، وألقوا أنفسهم في النيران ولم يبالوا برميهم وهجموا عليهم واختلطوا بهم، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم... وفر الباقون إلى من بقي بالإسكندرية، وليت العامة شُكروا على ذلك أو نسب إليهم فعل، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك... ولما انقضى أمر الحرب من ناحية رشيد وانجلت الإنكليز عنها ورجعوا إلى الإسكندرية؛ نزل الأتراك على الحماد وماجاورها واستباحوا أهلها ونساءها وأموالها ومواشيها زاعمين أنها صارت دار حرب بنزول الإنكليز عليها وتملكها... ثم أحاطت العساكر ورؤساؤهم برشيد وضربوا على أهلها الضرائب وطلبوا منها الأموال... وأخذوا ما وجدوه بها من الأرز... فخرج كبيرها السيد حسن كريت إلى حسن باشا وكتخدا بك وتكلم معهما وشنع عليهما، وقال: (أما كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العسكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم ومعكم وماقاسيناه من التعب والسهر وإنفاق المال ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل، فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ولا نأخذ معنا شيئًا ونترك لكم البلدة افعلوا بها ما شئتم) فلاطفوه في الجواب

وأظهروا له الاهتمام... وكتب المذكورُ[1] أيضًا مكاتبات بمعنى ذلك وأرسلها إلى الباشا والسيد عمر[2] بمصر فكتبوا فرمانًا وأرسلوه إليهم بالكف والمنع، وهيهات! ولما وصل من وصل بالقتلى والأسرى أنعم الباشا على الواصلين منهم بالخِلع والبقاشيش وألبسهم شلنجات فضة على رءوسهم؛ فازداد جبروتهم وتعديهم[3]».

ومن هذا النص البليغ يظهر أن العامة الشرفاء جادوا بأرواحهم الزكية، ولم يتركوا سبيلًا للجهاد إلا وسلكوه، حتى الجهاد بالمال، وأن المتطوعين من العامة كثر عددهم، في الوقت الذي فكر فيه محمد علي وعسكره في الفرار وترْك الأمة تواجه خطر استيلاء الإنجليز عليها.

ومن العجيب أن اندفاع العامة في المقاومة والجهاد كان عفويًّا دون توعية أو تخطيط سابقين؛ وذلك أن العامة في هذا الوقت كانوا في نظر الباشا ورجاله أصفارًا لا يؤبه لها، ومن ثم لم تهتم القيادة الرسمية بتوعية العامة وتدريبهم على مواجهة المخاطر، ومع هذا تمكن العامة - بقوة إيمانهم وإمكاناتهم المحدودة - أن يرعبوا الإنجليز ويفسدوا خططهم، ويعطلوا إمكاناتهم الرهيبة، وينتصروا على أقوى جيش في

(1) يعني: حسن كريت، كبير رشيد.

(2) يعني: عمر مكرم.

(3) مع أنهم جبنوا عن قتال الإنجليز - هم والباشا - ولم يتجاسروا على القتال إلا بعد انهزام الإنجليز أمام عامة الشعب. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 196).

العالم في هذا الوقت، والسبب في هذا هو صدق عزائمهم حال خور عزائم الباشا وعسكره، وخلوص نواياهم في الجهاد والمقاومة – في سبيل الله ومن أجل وطنهم الحبيب– حال فساد ذمم القائد ورجاله وتمكُّنِ حب الدنيا من أفئدتهم في أوان التضحية والجهاد، وكيف لا والوطن في نظرهم ما هو إلا ضرع حافل بالخيرات، وواجبهم (المقدس) هو حلب الضرع واستخلاص خيراته حتى آخر قطرة!

ثم لم يكن جزاء العامة على بطولاتهم وسترهم على عار الباشا ورجاله إلا الاستباحة والاستنزاف، بينما نال العسكر الجبناء كلَّ أصناف التكريم، لا لشيء إلا لأنهم رجال الباشا، فلكِ الله يا مصر الكنانة!

هذا، وهناك الكثير من الشخصيات التي قامت بأدوار مهمة في المقاومة الحضارية، لكنها لم تنل حظًّا من تسليط الأضواء التاريخية الكاشفة لهذه الأدوار المشرفة.

ومن هذه النماذج:

- حسن بك الجداوي، وعثمان بك حسن تابعه[1].
- الحاج مصطفى البشتيلي
- حجاج الخضري (شيخ طائفة الخضرية)

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 251).

- الشريف حسن، ابن أخت «الشيخ أحمد الجيلاني السباعي»[1].
- الحاج عمر الفوتي (أحد قادة المقاومة في بلاد المغرب).
- وغيرهم كثير مما لا يتسع المقام لاستيعاب بطولاتهم في المقاومة الحضارية.

***

(1) خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 424، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.

obeikandl.com